

كُتُبُ ثَنَافِيَةِ

عاصفة من أفريقيا

قصة هانتيبال ، بطل قرطاجنة

بقلم هارولد لام
ترجمة شفيق أسعد فريد



0195799

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز بن
فهد بن
الأمير
السعودي

عاصفة من أفريقيا

قصة هاتيبيال ، بطل قوطاجنة

بقلم هارولد لام
ترجمة شفيق أسعد فريد

الفصل الأول

التقهقر من البحر



تجاوز هانيبال مرحلة الطفولة وهو لا يرى أمامه شيئاً غير البحر لأن أسرته أقامت فوق قمة جبل ايرايكس حتى بلغ الخامسة من عمره . وكان هذا الجبل أشبه ببرج مراقبة يبرز من أعماق الماء بجوار خليج ضحل يشبه نصف قمر ، ويشرف على مدينة صغيرة مشيدة بجوار الخليج ويلتف حولها سور مرتفع ، إلا أنه لم يكن في استطاعة هانيبال أن يزور هذه المدينة لقيام حالة الحرب بينها وبين سكان الجبل ..

وهكذا ازدحمت ذكريات بيئته الأولى بمعسكر منساح ؛ ومع أن سكان هذا المعسكر لم يكونوا يحملون أسلحة في غدوهم ورواحهم إلا أنهم كانوا لا يكفون عن إصلاح أكوأخهم التي صنعت سقوفها من أعواد القصب الجافة كلما أمطرت السماء ، أو مراقبة نساخهم

وهن ينظمن قطع النقود الفضية في عقود يخزننها لوقت الضيق .
وكان الأسرى يزرعون الشعير ، بينما تولى أولادهم مراقبة قطعان
الماعز التي ترعى حتى يحين وقت نحرها . .

وهكذا نشأ هانيبال في بيئة يحف بها العدو ؛ ولكن خطورة
انحدار الجبال أتاحت للمجتمع الذي يحكمه هامبارسا أن
يعيش في أمان

وعندما بدأ الطعام في التناقص أخذ هانيبال يسمع وقع أقدام
الرجال لابسى الخوذات وحاملى الدروع ، وهم يهبطون الممرات
الجبلية في فصائل .. كانوا يقومون برحلاتهم عند غروب الشمس ،
ويعودون - متخذين من الظلام ستاراً يحميهم - وهم يقودون
أمامهم حميراً وأسرى محملين بالنبيذ وأواني القمح ، وفي بعض
الاحايين كانوا يسوقون أمامهم ماشية اغتصبوها من الوادى . .
ونظراً لأن هانيبال كان يحرص على رؤية هذه الفصائل عند
رحيلها وعودتها ، فإنه لم ير أن هناك وجهاً للغرابة فى أن يتكلم
هؤلاء الرجال لغات متباينة - ذلك لأنهم كانوا جنوداً مرتزقة
ينتمون إلى عشرات الجزر الساحلية . . ولكن هؤلاء الرجال
مالبثوا أن تعودوا على التحدث باللغتين الأفريقية واليونانية اللتين كان

سكان المعسكر يتكلمونهما ، وسرعان ما تعلم الغلام الصغير هذه اللغات . وكان الجنود المرتزقة يتوقفون عن العمل من حين لآخر ويلتفتون حول الابن الاكبر لمولاهم هاملكار ليشرحوا له ما يخفى من الامور ، ولعل أكثر الانطباعات تأثيراً في نفس الغلام هي تلك التي حصل عليها من ليبي عملاق كان يزين أذنه بقرط كبير . .

كان هاملكار رجلاً قذاً استطاع أن يجمع حوله خايطاً من رجال متباينى الطباع والمزاج بينهم عدد من الرومان الذين وقعوا في الأسر ، أو فروا من جيش بلادهم . ولم يبخل هاملكار على هؤلاء الأسرى بحق الزواج والحصول على أجر معقول والعيش تحت سقف ، وبذلك استطاع أن يظفر بتأييدهم وخدمتهم .

وهكذا تعلم هانيبال الخشونة وتعود على احتمال المكاره من بيئته الأولى ، كما تعلم التنبؤ بحالة الطقس وقراءة ما تحمله الرياح والعواصف من نذر .

وكان هاملكار ومن معه من القرطاجنيين يتطلعون دائماً ناحية الشرق حيث يوجد وطنهم الاصلى ؛ وطن آبائهم وأجدادهم الفينيقيين الأوائل الذى كان يعرف باسم الاراضى الحمراء ، ومنه هاجروا إلى اراضى كنعان وشاطئ البحر المتوسط الخصيب .

وكان سكان الأراضى الحمراء يعتمدون على البحر فى حياتهم ،
ولكن هذا الاعتماد لم يقتصر على مصائد السمك الموجودة بالقرب
من الشواطىء ولا على الصبغة الأرجوانية التى كانوا يستخلصونها
من الأصداف ، وإنما كانوا يحصلون على عيشهم من نقل التجارة
عبر البحار فى سفن من صنعهم .

ولقد أنشأ الفينيقيون الأوائل مدناً قوية على الجزر الحجرية
القريبة من الشاطئ ، وكانت أقوى مدينة لهم هى التى أنشأوها
على جزيرة تايروس . ومن أعماق القارة أحضر تجار جزيرة تايروس المواد
الأولية فى قوافل كانت تبحر من دمشق وجدة وسبأ وايدوم
ومصر حيث يتولى الصناع المهرة تحويلها إلى سلع دقيقة

ولم يكن شاطئ جزيرة تايروس الصخرى يشتمل على أية موارد
يستمد السكان طعامهم منها ، ولهذا لجأوا إلى زراعة الأراضى
الخصبة المجاورة . وكانوا يقيمون فى أبنية عالية مكوّنة من شقق
كثيرة ، ولولا أن تعدادهم لم يكن يزيد على ٢٥٠٠٠ نسمة ..

ولقد قال سترابو إن ثراء تايروس كان وليد مهارة سكانها ،
وكانت هذه المهارة مركزة فى قلعة الفينيقيين على نقل التجارة ،
ومقايضة السلع المصنوعة بالمواد الخام والعكس بالعكس .

وفي أيام الملك حيرام أنشأ الفينيقيون أسطولا لسلیمان ملك
إسرائيل في البحر الأحمر من خشب استمدوه من أشجار الصنوبر
المستقيمة بالبنان ، وأوتاد من حديد طوروس ، وأشرعة من
السكران المصرى . وحصلوا مقابل ذلك على ذهب مستخرج من
مناجم أوفير ، كما قدم حيرام أيضاً الخشب اللازم للمعبد الذى
بناه سليمان .

كان الفينيقيون أول شعب ، ولعلمهم آخر شعب أيضاً ، أقام
ثقافته على تجارته . ولهذا كان لابد أن يعمهم الرخاء فى أوقات
السلام أى الفترات التى تتوسط مراحل الفراغ والغزو . وكان
جيش سنحاريب واحداً من جيوش كثيرة ضربت الحصار حول
القلعة التى أنشأها الفينيقيون على شاطئ جزيرتهم تاير ، وعندما
استسلمت هذه المدينة الأم للفرس فى عام ٥٣٨ - أى حوالى
ثلاثة قرون قبل أن يلوذ هاملكار بقاعته الجبلية ضد الرومان -
استطاع الفينيقيون أن يحكموا على عيشهم بالعمل فى النقل
البحرى لملوك الفرس العظماء . وظلت مذشآت تاير بموانئها
الصناعية قائمة بغير أن يطرأ عليها أى تغيير ، ولعل ثراءها ازداد
فعلا تحت حكم امبراطورية فارس ؛ إلا أن شعبها أصبح رعايا
لا يستطيع أن يتابع مصيره فى البحر كما يهوى .

ولكن شعب فينيقية كان شعباً طموحاً ، فبنى السفن الكبرى ،
وأوغل في مياه المحيط بحثاً عن المناطق البعيدة بدلاً من الاكتفاء
بالجزر القريبة من الشاطئ . واستطاع الفلاحون الفينيقيون أن
يضلوا أساطيل كريت والإغريق ويكتشفوا منطقة شبيهة بجزيرة
تاير نفسها على ساحل أفريقيقا حيث يحف بها وادى خصيب
وتحميها الصخور من ناحية البحر ، فأنشأوا بها مدينة قرطاجنة ..

وهكذا تشبع دم أسلاف هانيبال بالبحر

وأراد الفينيقيون التخلص من منافسة الدول الأخرى ،
فلجأوا إلى زديد قصص وأساطير مفزعة عن العواصف والأنواء
القائلة التي تسود البحار العميقة .

وظل سكان قرطاجنة على ولائهم لوطنهم ، فكانوا يبعثون
بالهدايا إلى آلهة جزيرة تاير برغم أنهم أنشأوا معابد جديدة لهذه
الآلهة في وطنهم الجديد قرطاجنة .

* * *

لنعد الآن إلى هامايكار ..

كان هامايكار رجلاً باسلاً ينتمى إلى أسرة عريقة من أسر

جزيرة تايير ، ولهذا أقبل عليه الجنود المرتزقة من كل حذب
وصوب وعرضوا عليه خدماتهم . . .

ورأى هاملكار اتباع السياسة التي انتهجتها قرطاجنة وهي
سياسة الانطلاق غربا للبحث عن مصادر الثروة في بلاد البربر ؛
وكان السبب في ذلك ما تبين له - بعد احتلال جيوش روما
لجزيرة صقلية - من أن في استطاعته المضي في محاربة هذه
الجيوش بغير أن يكلف خزانة قرطاجنة اعباء جديدة بعد أن
اثقلتها اعباء الحروب السابقة . ولذلك لاذ بجبل ايرايكس مع
آلاف عديدة من جنوده الذين كان يدفع لهم مرتباتهم من
ماله الخاص .

وهكذا احتفظ هاملكار برأس الجسر في جبل ايرايكس بعد
أن اطمأن إلى أنه من المستحيل أن تهاجمه جيوش روما
لمناعة الجبل .



لقد أحسن مجلس قرطاجنة صنعا حينما اختار رجلا لا يعرف
معنى الاستسلام ليكون محدث قرطاجنة الرسمي في مفاوضات

الصلح مع العدو اللاتيني الذي انهكه الاعياء بدوره . وكان هذا المجلس يتكون من كهول ينتمون إلى أسر عريضة الثراء ، لهم تقاليدهم وخصوصاتهم ، ولما كانت أغلبية أعضاء المجلس من أسر تناصب أسرة بارسا العداء ، فقد قررت هذه الأغلبية الدخول في مفاوضات الصلح مع تلك الدولة النائية التي أطلقت على نفسها جمهورية الرومان الشعبية . وكانت الأغلبية ترى أنه إذا أفلح هاملكار بارسا في الحصول على شروط حسنة من العدو فيها ونعمت ، أما إذا فشل في ذلك فسيؤدي ذلك إلى الانتقاص من هيبة أسرة بارسا التي يكرهونها .

ولم يشهد الغلام هانديال غير نهاية النضال حينما رأى مئات من الأشرعة تتحرك مقبلة من الأفق الغربي ، فتسبح طاسفن الحراسة الرومانية بالمرور . وكانت السفن المقبلة تشكل الأسطول الذي أرسلته قرطاجنة لنقل حامية جبل ايرايكس .

وهكذا أبحرت حامية هاملكار عائدة إلى قرطاجنة بعد انقضاء ثلاثة أعوام عليها وهي رابضة في معقما . . وختمت بذلك معاهدة الصلح التي وقعت مع روما ،

وقد ظلت ذكرى هذه الأعوام الثلاثة بما تخللها من متاعب
عائلة بذهن الصبي هانيبال حتى بعد أن انتقلت أسرته إلى قصر
منيف بقرطاجنة .

ملكة البحر :

كان عمر المدينة الجديدة خمسة قرون في ذلك العهد . وفي
الأصل اتخذ الفينيقيون منها مرفأ مؤقتاً لسفنهم الزاهية إلى أسبانيا
نظراً لوجود طرف ضيق يشبه الجزيرة في قلب خليج تونس ،
وسرعان ما أنشأ الفينيقيون مرفأ خلف المول الحجري الذي يبلغ
ارتفاعه ، ، ، قدم .

وحفر الفينيقيون مرفأ داخلياً للسفن الحربية يتسع لمائتي
سفينة وأنشأوا على حافته مبنى للاميرالية ، بأعلام قبة عالية شبيهة
بفاروس لمراقبة المياه الخارجية ، واعطاء الاشارات . وخلف
المبنى ، أنشأ القرطاجنيون مخازن الخشب والاسلحة ومهمات
الحرب : ورغم أن قرطاجنة لم تكن تملك في ذلك الحين الأسطول
الذي كانت تملكه عندما كانت ملكة البحر الغربي ، إلا أنها كانت
تخزن المواد الكافية لإنشاء أسطول كبير ، وقد أنشئ جدار

خارجى لمنع المتطافين من التلصص والتجسس على الأسرار التى تحتفظ الدولة بها داخل هذا الجدار .

وكانت هناك ساحة عريضة تؤدى إلى قلعة بايرسا القديمة التى شيدت على ربوة ارتفاعها حوالى ٢٠٠ قدم ، لا يكاد حجمها يبلغ نصف حجم منطقة الأكروبوليس فى أثينا . وقد خصصت هذه القلعة لتكون معابد للآلهة . . ولما كانت شروط الصالح التى أبرمت مع روما حظرت على القرطاجنيين إنشاء مصانع جديدة ، فقد عمد هؤلاء إلى زيادة عدد طوابق المصانع وحشدوا العمال والصناع فى الطريق الجديد .

ومن وراء بايرسا امتد الطريق العظيم مسافة سبعة أميال تقريبا عبر شبه الجزيرة تحف به الحدائق الغناء والمقابر الفاخرة من ناحية ، بينما أنشئت على الساحة الأخرى منازل الأسر الكبيرة التى جمعت ثروتها من التجارة ، وكان بعض هذه الأسر ، كأسرتى ماجو وهانو الارستقراطيتين تتمتع بالجاه والسلطان منذ أجيال طويلة .

أما سكان المدينة فكانوا فى ذلك العهد خليطا من الفينيقيين

والنوميديين والسودانيين والليبيين واليونانيين وبعض الرومانيين
الذى فروا من جيوش روما .

والواقع أن شوارع قرطاجنة الكبرى أصبحت بمثابة شرايين
القارة الأفريقية ، إذ كانت منتجات القارة تأتي عن طريقها إلى
مدينة قرطاجنة ثم تشحن في السفن إلى مختلف موانئ البحر
الأبيض .

وكانت لقرطاجنة خاصية أخرى ، وتلك أنها ظلت حرة دائماً
أما تاير فاستسلمت للكادانيين أولاً ، ثم للفرس بعد ذلك .
إلى أن اكتسحها الاسكندر الأكبر بجيوشه ، فهرب كثير من
الكهول والنساء والأطفال إلى وطنهم الجديد في عام ٣٣٢ .

ومن عجب أنه لم يكن يوجد سور دفاع حول قرطاجنة ، لأن
الحاجة لم تدع لإنشاء مثل هذا السور نظراً لأن البحر كان يحمي
المدينة من هجمات المغيرين عليها .

ولقد انتقل هانيبال إلى هذا الوسط الجديد مع أبيه القاق
حيث قضى أعواماً طويلة مع أخويه الطفلين فكان أحد القراء
يؤشد لهم أشعار البطولة ويسرد عليهم قصص الأبطال .

واتفق أن نشبت ثورة بين القبائل التي تحف بقرطاجنة

فما بين عامي ٢٤١ - ٢٣٨ ولم تلبث هذه الثورة أن تحولت إلى حرب أهلية هددت المدينة بالخطر ، فسارع مجلس المدينة بإعفاء أسيرة هانو من الحكم ، واستدعى هاملكار بارسا لتولي القيادة .

وسحق هاملكار الثورة . وأعيد فتح الطريق إلى البحر من جديد .

وتوطد بذلك سلطان أسيرة بارسا في المدينة . .



ولكن قرطاجنة لم تلبث أن تعرضت لمحنة جديدة .

ذلك أن روما طلبت من قرطاجنة الانسحاب من حزيرتي سردينيا وكورسيكا ودفع غرامة جديدة زنتها ١٨٠٠ طالن (وزن قديم) من العملة الفضية بالإضافة إلى الغرامة التي سبق الاتفاق عليها في عام ٢٤١ .

وكانت الشروط التي قبلها هاملكار بوصفه مبعوث قرطاجنة شروطا تبرم بين دولتين على قدم المساواة . وقبلت قرطاجنة التخلي عن صقلية ، ودفع غرامة تساوي تكاليف الحرب التي دفعتها

روما ؛ وتحديد مجالات التجارة لكل من الدولتين ، مع تعهد كل منهما بعدم التدخل بين حلفاء الفريق الآخر .

بيد إنه ما كادت قرطاجنة تسحق الثورة التي نشبت بين القبائل المتاخمة لها حتى فوجيء هاملكار بتدخل مجلس شيوخ روما ومطالبته بسحب حاميات قرطاجنة من سردينيا وكورسيكا ، وإلا أعتبرت حالة الحرب قائمة بين روما وقرطاجنة .

وكان ضياع سردينيا وكورسيكا معناه ضياع موانئ ثمينة تعتمد قرطاجنة عليها في منطقة غرب البحر الأبيض ، كما أن تسليم صقلية الغنية الواقعة في منتصف الطريق بين طرف إيطاليا الجنوبي وشبه جزيرة قرطاجنة بمثابة التخلي عن خط دفاع حيوى ، وفقدان هيبة قرطاجنة كدولة بحرية هامة في البحر الأبيض .

وانقسم أعضاء مجلس قرطاجنة على بعضهم ، وتعددت الآراء وراح فريق ينحى باللائمة على هاملكار ويقول إنه ما كان يجدر به أن يتخلى إطلاقا عن إيرايكس . إلا أن أغلبية الأعضاء كانت تدرك استحالة إستئناف الحرب ضد روما بعد أن تمكنت من تجديد جيوشها خلال الهدنة التي استمرت ثلاث سنوات .

ويقول التاريخ أن قرطاجنة سحبت حامياتها وتخلت عن الجزر
ودفعت الغرامة الجديدة إلا أن هذا الحادث كان حافزاً للقراطاجنيين
على الاستعداد للنزاع الكبير الذى نشب بين الدولتين للسيطرة
على البحر الأبيض الذى اشتهر فى التاريخ باسم حرب هانيبال .



عندما كان هانيبال فى التاسعة من عمره شاهد الاستعدادات الأولى
التي اتخذتها المدينة توطئة للحروب التي خاضا هانيبال فيما بعد ضد
روما ، فقد اقامت المدينة ثلاثة أسوار عالية حولها ، وجمعت عدداً
من الفيلة تربتها على القتال ، وانشأت مئات من الحظائر ضمت
الآلاف من الجياد المطهمة . وأعدت بالأسوار أماكن خاصة لرفع
أجهزة إطلاق الصواريخ الجديدة حتى يستحيل بذلك اقتحام
المدينة من البحر

وقبل أن تقطع هذه الاستعدادات مرحلة كبيرة ، أعد هاملكار
العدة للهجرة إلى أرض جديدة فى الغرب بعيداً عن ساطان الرومان
ورأى هاملكار أن يصحب معه زوج ابنته الكبرى وبعض الضباط
وقد ائتمن المحاربين . . . وعلم هانيبال أنه لم يعد هناك جيش من الجنود
المرتزقة كذلك الذى عرفه فى جبل ايرايكس . وإن أباه قرر أن

يرحل المهاجرون في قوارب متفرقة بغير أن يعلم أحد من ركبها
بوجهتها الحقيقية .

وبعد ذلك بسنوات طويلة ، وعندما كان هانيبال ينزل ضيفاً
على بلاط انتيوخس ، تذكر كيف استدعى أباه جميع مرافقيه من
النبلاء والضباط وطلب منهم : إذا أرادوا الذهاب معه ؛ أن
يقسموا في معبد ملكارت على الوفاء لقرطاجنة . وعندما ذهبوا
إلى المعبد ، نحر هاملكار حملاً . وبعد أن أقسم النبلاء بيمين الولاء
استدعى ابنه هانيبال وسأله برفق إن كان يرغب في الذهاب معه
وفي هذا يقول هانيبال إنه كغلام قبل العرض فوراً فأمسك أبوه
بيده ، وقاده إلى المذبح وطلب منه أن يضع يده الأخرى على ذبيحة
الحمل وأن يقسم بأنه لن يصادق الرومان . . وقد كان .

وكان لهذا القسم الذي أقسمه أفراد أسرة بارسا عند زحيلهم
إلى إسائنا أثره الحاسم في تصميمهم على عدائهم الدائم لروما في
السنوات التالية .

عندما أقبل الربيع أبحرت سفينة هاملكار ومن معه من ميناء
قرطاجنة ليلاً يتبعها عدد من السفن الصغيرة ، بينما وقف كمينه
المدينة وعظاؤها يلوحون بأيديهم مودعين .

ووقف العلامة هانديال على ظهر السفينة يتأمل الشاطئ وهو
يبتعد رويداً رويداً بدون أن يدري أنه سوف يمر ستة وثلاثون
عاماً قبل أن يقع بصره على ساحل إفريقيا مرة أخرى .

وبعد ستة أيام دخلت السفن في نطاق مياه المحيط الخارجي ،
ثم عبرت مضيق جبل طارق وانطلقت إلى قانس وهي مدينة تقوم
على شبه جزيرة أشبه بالمول الطبيعي ويحدها خليج عميق يتسع
لرسو السفن الكبيرة .

ووقف رجال المدينة الرسميون يحيون هاملكار ومن معه ،
وعرضوا عليه ضيافتهم وهم يترقبون أفضائه بالسبب الذي دعا
المجئ . وحياتهم هاملكار باحترام سياسي ، وافضى إليهم بأنه
جاء للإقامة بينهم وأنه سيدفع جميع تكاليف إقامته ومن معه .

كانت مهمته إخضاع الأراضي الإسبانية . إذ كان المأمول أن
يتمكن من تحويل هذا الطرف الغربي من أوروبا إلى قاعدة
لقرطاجنة في فترة وجيزة حتى يمكن استخدامها للتوسع في التجارة
على طول سواحل المحيط الغربية .

ومع أن العذر الذي قدمه هاملكار لأهل قانس كان صحيحاً ،
إلا أنه لم يكن كل الحقيقة . إذ الواقع أن شبه الجزيرة الكبيرة

كانت خارج نطاق نفوذ روما ، تحميها جبال البرنيز الشامخة التي
يمكن استخراج ثروات معدنية كبيرة من مناجمها ، كما يمكن تجنيد
جيوش جرارة من أبنائها .



قضى هامليكار زهاء تسع سنوات في العمل الشاق الدائب
لأنأخذه بمن معه ولا بنفسه شفقة ولا رحمة . فاستطاع أن يحقق
الشيء الكثير في هذه الفترة .

وكان هامدروبال زوج ابنته الكبرى يقدم له كل مساعدة
في طاقته إذ أنه كان يملك مناجم كبيرة وثروة عريضة . أما الشاب
هانيبال فكان يلزم أباه كظله ويدين له بالطاعة العمياء .

وعثر هامليكار ومن معه على قاعدة للعمليات في انتظارهم
بأسبانيا . فعندما إبحروا في نهر بيتيس من قادس ، لم يلبثوا
أن دخلوا أرض المراعى والمدن الهادئة في جنوب أسبانيا وقد
رحب بهم سكان هذه المدن وقدموا لهم أباريق النبيذ وأواني الفاكهة
كان هؤلاءهم الأيبيريون الذين يقيمون في جنوب أسبانيا
وهم قوم نصف مشرقين ، نصف قرطاجنيين في عاداتهم ، إذ كان
أسلافهم من البرابرة الذين هاجروا من أفريقيا عبر المضيق الضيق
وكانت ميناءاهما علفة وعبدراً خاضعتين لقرطاجنة .

وقامت البعثة الاستكشافية برحلة عبر وادي بيتيس الباسم
ومعها الشباب هايبال حتى يلم بطبيعة البلاد وعادات أهلها ولغاتهم .
وبعد أن انتهى هاملكار من جولاته ، أمر بحفر المناجم في
سهل ايريا وشق قنوات تصل مناطق هذه المناجم بالانهار ،
وقطع الخشب من أشجار البلوط المنتشرة بالغابات وتدريب الشبان
على القتال لإنشاء فرق محاربة كافية . .

وكان هاملكار قد جاء معه بمهندسين وضباط لمساعدة أهالي
ايريا في بناء دولة كبرى .

وعند رأس نهر بيتيس نهضت جبال الفضة ، وكانت هذه
الجبال (سيرا مدريدتا) تضم ثروة اسبانيا المعدنية . ومن ثم
نشط مهندسو هاملكار لتحديد مواضع حفر المناجم . وأشرفوا
على إنشاء أفران الصهر . وسرعان ما بدأت الثروة تتدفق ذهباً
وفضة على هاملكار ومن معه .

وكان الكلت يقيمون شمال هذه الجبال بعد أن هاجموا اسبانيا
ولكن الايرييين استطاعوا صبغهم بالصبغة الايرية فاستوطنوا
اسبانيا واشتغلوا بالرعي . ولكن دهم الكلتى كان يتغلب عليهم
من حين لآخر فيندفعون إلى الغزو أكثر مما يشتغلون بالتجارة

إلا أن ظهور هاملكار بينهم فجأة كالصاعقة ، وأخذه رهائن من
شيوخ قبائلهم ، وعصفه بقلاعهم الحجرية العتيقة القائمة على
مرتفعات منعزلة التي كان ملوكهم يقيمون بها ، جعلهم يدركون
أنهم أصبحوا تحت سيطرة مارد جبار .

وهب أحد ملوك الكلت وأنشأ جيشاً جراراً من الفرسان
لطردها من هاملكار إلى البحر فتقدم هاملكار لمقابلاته ، وبعث بفيالته
العديدة في مقدمة الجيش فكان لذلك رد فعل نفساني عنيف بين
صفوف العدو الذي لم يألف منظر الفيلة ، فاختلف نظام هذه
الصفوف وإندحر جيش الكلت وسقط ملكهم أسيراً فأمر
هاملكار بسأبه نعمة البصر ثم صلبه بعد ذلك . أما الأسرى فضموا
إلى جيش هاملكار .

ورغم انقضاء تسعة أعوام على وصول هاملكار فإنه لم يستطع
أن يخضع لسلطانه أكثر من ثلث البلاد .

وفي تلك الاثناء قتل هاملكار بارسا . . قتله أحد رجال
القبائل غيلة .

وبادر ضباط قرطاجنة ، فانتخبوا هاسدرويال خليفة لقائدهم
هاملكار وسرعان ما جرد هاسدرويال حملة للثأر . فدمرت هذه الحملة
القرى واستعبدت سكانها وأشاعت الذعر بينهم . .

قرطاجنة الجديدة :

ومرت ثمانية أعوام أخرى . . .

وكان قد حدث تغيير كبير في جنوب اسبانيا خاف نطاق من السرية التامة فرضه القرطاجنيون . . ذلك لأن هاسدروبال كان سياسياً بارعاً ، فتخلى عن سياسة الاخضاع بالعدوان التي اتبعها هاملكار ، وسعى إلى كسب صداقة رؤساء القبائل الايبيرية واتخذ لنفسه زوجة من إحدى بناتهم. وهكذا استطاع هاسدروبال أن يتجنب الأخطاء التي وقع فيها سلفه .

وازدهرت التجارة ، وبعثت إيبيريا شحنات كبيرة من الفضة هدية لقرطاجنة واستعد هاسدروبال لسك نقود باسمه .

وتخلى منشئ الدولة الأسبانية عن مدينة قادس العتيقة وأنشأ ميناء جديداً على الشاطئ الغربي للبحر الأبيض المتوسط لا يبعد أكثر من سفر أربعة أيام عن قرطاجنة .

إلا أنه كان من المتعذر إخفاء مرفأ كبير كهذا عن أعين ركاب السفن المارة . ونظراً لأن هذا المرفأ كان شديد الشبه بقرطاجنة الأفريقية فقد أباح تجار مارسيليا أمر قرطاجنة الجديدة للرومان ،

وأضافوا أنهم يعتقدون أن القرطاجنيين أنشأوا حضائر كبيرة
لبناء السفن وأن اسطولاً كبيراً بسبيل الخروج إلى عرض البحر..
وكان لهؤلاء التجار المارسييليين (أحفاد الأغريق الفيديقيين)
مرفأً تجارى إلى الشمال فوق مصب نهر ابرو العظيم على الساحل
الشرقى للأرض المخبأة ، ونظراً لأن أهالى مارسيليا عانوا
الأميرين من خداع قرطاجنة وما قام به أهلها من سرقة التجارة
الساحلية ، ولما كانت مارسيليا حليفة للجمهورية الرومانية ، فقد
استغاثت بحاميتها . ولكن الرومان اعتادوا ألا يقدموا على أى
عمل حربى إلا بعد أن يناقشه مجلس الشيوخ . ومن ثم أوفدت
روما رسلاً إلى هاسدريال طلبوا منه التعهد ألا يعبر القرطاجنيون
خط ابرو وأسحلتهم فى يدهم .

وأعطى هاسدروبال المهذب الوعد المطلوب بالنيابة عن
قرطاجنة .

ولكن هذا الوعد كان بمثابة حرمان الدولة الجديدة من خط
دفاعها الأسيانى الطبيعى : جبال الپرينز . والواقع أن هذا الوعد
كان اعترافاً بوجود سلطات روما على مبعدة ٦٥٠ ميلاً من نهر

التبر . ومع ذلك فإن هاسدرويال أستطاع بتصرفه هذا أن يكسب وقتنا ثميناً لاستعداداته وفي هذا قال الجواسيس لاهالى مارسيليا ثم لاهالى روما : « لقد أبدى هاسدرويال مهارة لا تبارى فى اغراء القبائل الوطنية بالانضمام إلى امبراطوريته » .

ولكن الوقت كان يمر سريعاً . وبعد خمس سنوات من زيارة المبعوثين اغتيل هاسدرويال .. اغتاله أحدب كلتى كان يحقد عليه .

واجتمع ضباط الجيش فى قرطاجنة الجديدة وانتخبوا هانديبال قائداً عليهم لأنهم « رأوا فيه صورة قائدهم المحبوب هاملكار » .

وأثار هذا الاختيار بعض الجدل فى مجلس قرطاجنة . فادعى جناح أسرة هانو ، وهم خصوم أسرة بارسا ، أن هاسدرويال جعل من نفسه ملكاً فى كل شىء ولم يكن ينقصه غير الاسم ، أما هانديبال فقال شيوخهم إنه غلام لا يعلم أحد شيئاً عنه . ولكن عقلاء المجلس رأوا عرض الأمر على المجالس الشعبية . وكانت هذه المجالس تؤيد أسرة بارسا على طول الخط ومن ثم أصدرت قراراً شبه اجماعى بتأييد تعيين هانديبال .



في هذا العام ، أى عام ٢٢١ كان هانيبال فى السادسة والعشرين من عمره . وقال الذين احتسكوا به أنه كان شبيها بأبيه فى شجاعته وتعوده على حياة الخشونة وسرعة خاطره ومبادرته بالعمل كلها اعترضته صعوبات ، وقدرته على الاحتفاظ باتزانة العقل فى الملهمات فضلا عن تحمله الحرارة والمكاره بغير أن يبدو عليه التعب .

وكان هانيبال لا يهتم إلا قليلا من الخمر ، ولكنه كان نهما ، يجيد الفروسية ويحذق الفنون الحربية . . كما كان يتمتع بموهبة الضحك ، والقدرة على التهمك حتى على نفسه فى بعض الاحايين . ولما كان قد قضى سنى مراهقته فى سهول الاندلس واختلط بالنساء ، فقد اتخذ له زوجة من أحدهن وكان اسمها أميرة كاسترو ، ولكن اسمها غير معروف ، ولعله كان لهذا الزواج مغزى سياسى لأن الفتاة كانت تنتمى إلى قبيلة أو لكيد التى كانت تقيم على الحدود بين جبال الفضة بشبه جزيرة ايبيريا والوادى الذى كان الكاربتيون البرابرة يقيمون فيه .

وكانت أول خطوة أقدم عليها سريعة كالبرق لبسط نفوذه على الشمال .

كانت شبه جزيرة أسبانيا مقسمة حينذاك إلى ثلاثة أقسام
أو بمعنى أصح كان سكانها من ثلاثة أنواع . فكان القسم الأول .
وهو الأصغر ، يتكون من الفوروسيين والايبريين الذين يقيمون
على الساحل الجنوبي والشرقي ؛ وكان القسم الثاني يتكون من
الكلت الغزاة الذين استوطنوا أسبانيا وامتزجوا بأهلها ، وكانوا
يقيمون في سهول مسينا حول نهر التاج حيث توجد اليوم
مدينة توليدو .

أما القسم الثالث ، وكان في الشمال ، فكان يتكون من الكلث ،
وكان بعضهم قد عبر حاجز جبال البرنيز في القرن الخامس ومازال
يقتل من مكان لآخر ويختلط بالعناصر الجرمانية الحشنة التي
دفعتهم جنوباً من أنهار بحر البلطيق ؛ وكان يطاق على هؤلاء الكلث
شبه المحاربين اسم الغال . وقد امتازوا بكثرة عددهم ، وفرط
حيويتهم عند الإثارة .

والقد عرف هانيبال كل هذه الحقائق قبل أن يبدأ في الكمال
غزو أسبانيا . وكان جيشه يتكون حينذاك من فصيلة من الضباط
القرطاجنيين المتعلمين ، ومعهم مشاة أفريقيون مدربون وفرق
نصف مدربة من الايبريين ، وأخيراً مجموعة من الفيلة ..

بهذا الجيش زحف هانيبال من نور المدنية بين المدن الساحلية نحو ظلام العصور الوسطى . . وكان عليه أن يلعب حينذاك دوراً مزدوجاً ، فباعتباره رئيس أسرة بارسا الحاكمة كان قائداً عاماً في خدمة مجلس قرطاجنة ، أما السكك فكانوا يعتبرونه ملكاً واسع الثراء يتمتع بتأييد جيش كبير . ولقد دعت الضرورة هانيبال إلى القيام بدور ملك في العصر الحديدي إذا نطق بكلمة كانت فيها الحياة أو الموت .

وكان هانيبال يرى في أسبانيا دولة مثبقة على نفسها يتصارع سكانها ، ويهاجم بعضهم محاصيل البعض الآخر لزيادة ماله من محاصيل .

وقد اضطر هانيبال إلى الاشتراك في جميع المعارك التي خاضها جيشه آنذاك ليثبت الحماس في نفوس جنوده الذين بدأوا يطيعونه طاعة عمياء .

وفي بداية عام كان يلعب خلاله دوره المزدوج كملك يستطيع أن يعاقب وأن يكافئ حسبما يشاء ، عبر هانيبال نهر التاج ، وكان يجند مزيداً من الجنود وهو يكتسح القرى في طريقه ويقود جيشه عبر سيرا جواديرما حتى أخذ الثاكسائيين على غرة . واكتفى

منهم بدفع غرامة رمزية ، وتقديم العلف اللازم لحيوانات جيشه
وتجنيد الشباب الأشداء في جيشه .

ولكن هذا الشعب البدائي لم يهضم سلوك هانيبال ، ولهذا
فما كاد يمضي عام وينطلق هانيبال بجيشه إلى الجنوب حتى قررت
قبائل الشمال أن تتحد لمقاومته .

ومع أن ضباط هانيبال نصحوه بمهاجمة هذه القبائل وسحق
مقاومتها إلا أنه رأى أن يتراجع سريعاً بجيشه نحو نهر التاج ، فیتبعه
الكلت في أعداد متزايدة ، ولكنهم وجدوا القرطاجنيين في انتظارهم
عند الشاطئ الجنوبي . وعندما اندفع فرسان البرابرة إلى النهر
ليعبروه بجيادهم أمطرهم جيش هانيبال بوابل من الصواريخ ، كما
انقض الجنود على المهاجمين برماحهم الطويلة بينما أشاعت الفيلة
الذعر بينهم وجعلت الجياد تندفع عائدة إلى الماء بعد أن ألقت
براكبيها فيه .

ولاذ جيش الكلث بالفرار ، فتبعهم القرطاجنيون ليضعوا
حداً لآية مقاومة مستقبلية . . وهكذا بسط الغزاة القرطاجنيون
نفوذهم على السهول الوسطى المتأخمة للساحل الشرقي حتى نهر إبرو
وتكون مركزاً للمقاومة حول مدينة عتيقة ذات أسوار تدعى

آرس . وكانت المقاومة مكونة من الايريين الذين شيدوا هذه المدينة ، ومن مدينة ساجنتم .

ولقد كلفت المناورات التي جرت في هذه المنطقة هانيبال المتلهف شيئاً لم يكن في استطاعته أن يجازف بفقده ، هو الوقت .

معركة ساجنتم

لم يضيع هانيبال وقته في إنشاء المشروعات العمرانية أو رعاية التجارة فقد ترك الأمور لأخيه الصغير . وراح هو يستكشف السواحل المحيطة به ويطلع كل ما اتصل إليه يده من كتب الرحلات والاستكشاف ، كما استدعى مديراً طبيياً من الاسكندرية هو ساينها لوس وأبدى اهتماماً كبيراً بتاريخ الشعوب المحيطة ، وبالأخص الرومان .

وكان هانيبال يعتمد اعتماداً كبيراً في الحصول على معلوماته على ما يسمعه من ربابنة السفن ، والتجار ، وجواسيسه الذين كان يبعث بهم إلى أقطار الأرض المعروفة . ويبدو أن حب استطلاع هانيبال لم يكن له حدود ، لأنه كان لا يني عن الاستعلام عن عادات الناس ومحاصيل بلادهم ومراسم حصادها حتى استطاع أن يستكمل

صورته الذهنية عن جميع شعوب البحر الأبيض ، وخلال عام ٢٢٠ قام هانيبال برحلات كبيرة في سهول أسبانيا الوسطى لدراسة احتمالات تجنيد بعض الفرق من السككت لما لمسه من قدرتهم على احتمال المشاق وجراتهم منقطعة النظير . .

وبعد أن اطمأن هانيبال إلى كفاية جيشه من الناحية العددية والتدريب ، انصرف إلى تشكيل قوافل من عربات النقل الخفيفة غير المعروفة في إفريقيا وكانت تجرها ثيران صغيرة سريعة الحركة وفي ربيع عام ٢١٩ وفد على قرطاجنة الجديدة رسولان قادمان من روما ، وقابلا هانيبال وطلبا منه ، باسم مجلس الشيوخ الروماني ، تنفيذ الاتفاقية التي سبق إبرامها مع هاسدروبال وتعهد فيها بعدم عبور نهر ابرو ، والامتناع عن مهاجمة ساجنتم بعد أن أصبحت حليفة لشعب روما .

كانت ساجنتم قلعة على الشاطئ في منتصف الطريق تقريباً بين قرطاجنة الجديدة ونهر ابرو ، ولهذا كانت ميناءاً تجارياً هاماً دبرت حوله مؤامرات كثيرة ، وأصبحت مسرحاً لاشتباكات مسلحة بين سكانها والمستوطنين الطوروسيين الذين كانوا يقيمون على مقربة منها . ولهذا سعى أهام إلى روما ينشُدون حمايتها كحليفة لهم

وأجاب هانيبال على قول رسولى روما بأن الانفاقية
التي أبرمها هاسدروال لا تجيز لشعب روما التمتع بأية سلطة
جنوب ابرو ؛ أما عن أهالى ساجنتم فإنهم اضطهدوا الطوروسيين
وعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك ، لأن « من عادات القرطاجنيين
مساعدة الشعوب المضطهدة »

وهكذا رفض هانيبال طلب روما لأمر كان يدينه . وعاد
الرسولان أدراجهما إلى روما ، بينما أرسل هانيبال تقريراً بما
حدث إلى قرطاجنة

ومع أن الوثائق التاريخية لم توضح أسباب الحرب إلا أن
المعلومات التي ذكرها ليفي تشير إلى هانيبال أن حاصر ساجنتم في العام
التالى ، وعندما عاد الرسولان إليه مرة أخرى بعث ببعض رجاله
لمقابلتهما على الشاطئ . وإبلاغهما أنه ليس من المأمون أن يجيئا
إليه ، وإنه ليس لديه وقت للاستماع إليهما في غمرة هذه الأزمة .
ومع ذلك فقد استقبل هانيبال رسل قرطاجنة الجديدة وتحدث
إليهم ، وبعث معهم بتقرير إلى قرطاجنة .

وعاد الرسولان إلى قرطاجنة وطالبا بحياذ ساجنتم . ولكن
مجلس برسا رفض التدخل فيما يرى هانيبال اتخاذه من إجراءات

وبذل هانو ، زعيم المعارضة ، جهداً جبلياً وناشد زملاءه أعضاء المجلس عدم إثارة الرومان بسبب الحرب مع ساجنتم . .
وحذرهم من إلحاق ابن هاملكار بالجيش لأن أسرة بارسا كلها مشبعة بالرغبة في إثارة المتاعب ، ونقض معاهدة قرطاجنة مع روما

وفي صيف ذلك العام هاجم هانيبال مدينة ساجنتم



لأريب أن هانيبال أدرك من دراسته أكثر مما ندرك نحن اليوم كيف خضع معظم إيطاليا لشعب المدينة الغامضة الواقعة في وادي نهر التيبر ، وكيف كانت خطواتهم الأولى في التوسع هي الاستيلاء على أتروسكان على التيبر الشمالي ، ثم استطاعوا — بالتحالف مع بعض الأقوام الآخرين — أن يسيطروا على وسط إيطاليا كله والاستيلاء على كابوا ، وهي أكثر مدن اليونان الجنوبية ثراء وثقافة .

وعندما استطعت روما إلقاء بايروس في البحر ، زحفت جيوشها سريعاً في اتجاه البحر ، حيث استولت على تارتوم في عام ٢٧٢ ، ورجيوم على مضيق مسينا في عام ٢٧٠ ؛ وبعد

ذلك بست سنوات تبع عدد قليل من الكتائب بعض الجنود
المرتزة عبر المضيق الضيق الخطر ، فعثرت على قائد قرطاجني مقبها
في قلعة مسينا ناحية صقلية .

وهكذا أخذت القوات الرومانية في التوسع ، وبدأ الطغاة
أو الديكتاتوريون يسقطون أمام قوة الرومان الجديدة الزاحفة
الواحد بعد الآخر كأوراق الخريف ..

وكان التوسع الروماني برياً حتى ذلك الحين بينما كانت سيادة
قرطاجنة على البحار ، ولهذا لم تتصادم مصالح القوتين كثيراً حتى
لقد عرضت قرطاجنة أسطولها على الرومان أثناء حمايتهم على بايروس ..

ولكن فلماذا الدولتين الكبيرتين لما يلجأ أن تلامسا عند
مضيق مسينا ، وهكذا وجد المجال للآمر تمهيداً للصدام المسلح .
وما زاد الطين بلة أن هيرود الثاني ، طاغية سيراكيوز ، قرر أن
تكون السيطرة للفرق الرومانية ، وعرض عليها مدينته المنيعة
لتكون قاعدة لها ، كما عرض عليها أسطوله للنقل . وهكذا قضى
على سيطرة القرطاجنيين على نصف الجزيرة الغربي ، وماليت
بمجلس قرطاجنة أن أدرك أن الجزيرة التي تعتبر مفتاح البحر
المتوسط ستفقد .

وكانت سياسة قرطاجنة حتى ذلك العهد الحد من الحروب ،
ونظراً لأن اعتمادها كله كان مركزاً في الأسطول فإنها كانت تعتمد
على الجنود المرتزقة لتشكيل جيشها البري . فإذا ما أدى هذا الجيش
مهمته سرحت جنوده بعد دفع مرتباتهم .

رجيولاس يعرض شروطه

لأريب في أن جميع هذه الخواطر طافت بذهن هانيبال .
وأنه أدرك أن عليه أولاً أن يهزم روما هزيمة ساحقة في البحر ..
خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، ظهر بوضوح متزايد أن
قواد الرومان وأعضاء مجلس الشيوخ الروماني والشعب الروماني
عموماً بدأوا يدركون أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على أية جزر
بعيدة ما لم تنهياً لهم السيطرة على المياه المحيطة بها . ونظراً لأن
الرومان كانوا قوماً عمليين فقد نشطوا لإنشاء أول أسطول حربي
(عند بداية العمليات الحربية ، أسر القرطاجنيون فرقة كاملة كانت
تتجول خبط عشواء وسبب ذلك جهل ملاحيها بالفنون البحرية
وأصابتهم بدوار البحر)

وفي مدى عام أنزلت روما إلى البحر مائة ناقسيلة جنود

٢٠ سفينة استكشاف ، وقالت الأساطير أن الرومان عثروا على ناقلة جنود قرطاجنية فأنشأوا ناقلاتهم على منوالها ..

ولم يقتصر الرومان على ذلك ، وإنما عمدوا إلى الاستعانة بأساطيل حلفائهم - تارتش و نابلي و بيزا و أتروسكان و سيراكيوز وهكذا استطاعت روما أن تعي قوتين برية وبحرية رهيبتين ..

وكان أول صدام وقع بين الأسطولين القرطاجني والروماني خارج شبه جزيرة مايلاي غير بعيد عن مسينا في عام ٢٦٠ . وكان الأسطول القرطاجني معتاداً على المناورات دون الاعتماد على الجنود ، ولهذا كان عدد الجنود الملاحقين به صغيراً ، ولعل المفاجأة لعبت دوراً هاماً في النتيجة ، إذ دمر معظم السفن القرطاجنية أو وقع في الأسر

وهكذا أحرزت روما أول نصر بحري لها على قرطاجنة .. إلا أن معركة مايلاي لم توطد سيطرة روما على البحر بين يوم وليلة ، ذلك لأن أساطيل قرطاجنية أخرى خفت إلى مكان المعركة واكتسحت شواطئ إيطاليا نفسها ، كما أن قواد روما البحريين لم يكونوا قد تمارسوا بعد في فنون القتال البحري ولهذا استطاع

القرطاجيون إبادة الآف الجنود الرومانيين . بيد أن ما حدث
في مايلاي كان درساً للقرطاجيين جعلهم يخشون بعد ذلك اختبار
قوة سفنهم ضد سفن روما .

أدرك هاملكار أن تفوق مدينته البحري لم يعد له وجود ،
ولاريب في أن هانيبال أدرك بدوره أنه أصبح من العسير أن يقوم
جيش قرطاجنة برحلة عبر البحر المفتوح .

وتمت فكرة أخرى ظلت ماثلة في ذهن هانيبال نتيجة للكلمات
التي قالها القنصل الروماني رجيولاس ومؤداها أن انتصار مايلاي
فتح أفقاً جديداً أمام المقيمين في التلال السبعة ، وإنه فتح لهم طريقاً
إلى شواطئ أخرى غير شاطئهم ، وليس من شك في أن أعضاء
مجلس الشيوخ الروماني تصوروا أن الكفاح حول صقلية يمكن
أن ينتهي بالاستيلاء على قرطاجنة .

وهكذا ما كادت تنقضي ثلاثة أعوام على موقعة مايلاي حتى
أبحر أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة مختلفة تحمل أربع فرق من
الجنود البريين ، وشق هذا الأسطول طريقه وسط أسطول قرطاجنة
جنوب صقلية ، وبذلك نقل القتال بأمان إلى أفريقيا . وتولى
القنصلان رجيولاس وقالو قيادة الحملة . وكان يبدو أن أية قوة

لن تستطيع الوقوف في طريقها إلى المدينة التي لم يكن لها سور
يحميها في ذلك الحين ، وعندما وفد رسل القرطاجنيين إلى معسكر
الرومان للتفاوض حيّاهم رجيو لاس بما يشبه الغضب (ذلك لأن
ظهور الجيش الأوربي فجأة أثار شعوب أفريقيا التي ظلت نهياً
للاضطراب فترة طويلة) .

وتحدث رجيو لاس بوصفه القائد الحربي للقبائل الأوربية ،
وألقى إليهم بشروطه وهي : التخلي عن صقلية وسردينيا .

تسليم جميع الأسرى الرومانيين بلا تعويض ، مقابل تسليم
الأسرى القرطاجنيين بتعويض ودفع تكاليف الحرب لروما على
أفراط سنوية .

أن تتعهد قرطاجنة ألا تشن حرباً أو تبرم صلحاً بغير موافقة
حكومة روما .

أن توافق قرطاجنة على عدم إعداد أسطول للقتال والاحتفاظ
بسفينة واحدة في الخدمة .

أن تتعهد قرطاجنة بإعداد خمسين سفينة وتقديمها لروما
لاستخدامها بمعرفتها .

وكان معنى هذه الشروط القضاء على المدينة التي ظلت سيدة
البحار حتى ذلك الحين . وهنا استيقظت المدينة لمواجهة خطر
لم تكن تتوقعه حتى ذلك الحين، وارسلت سفنا لاحتضار هاملكار
بارسا ومحاربيه من جهة صقلية (كانت السفن الرومانية راسية
في خابج تونس والقواد معسكرين على الشاطئ) . وقدمت لجندى
آخر محمك ، هو اكسانثيوس ، قائد جنود اسبارطة المرتزقة ،
فرقاً من الفرسان النوميديين وقبيلة لمقابلة فرق رجيولاس في الوادي
المكشوف مستخدماً في مقاتلتها تسكتيكا حريباً جديداً . وتقابل
الرومان مع جيش اكسانثيوس — هاملكار ، فحلت بهم كارثة
انتهت بأسر نصف قوات القائد الروماني وهو على رأسهم ، بينما
اضطرت بقايا جيشه للتقهقر إلى سفنها ، ولكن عاصفة بحرية
أغرقت ٢٨٤ سفينة بمن عليها من المحاربين .

وعندما بلغت أنباء الكارثة مدينة روما أصدر مجلس الشيوخ
الروماني أمره بالشروع فوراً في بناء أسطول حديد . ويقال أن
حوالي ٢٢٠ أعدت في مدى ثلاثة شهور ، ووقفت متأهبة عند
الساحل الايطالي . .

وبعد سنوات من المرافسة المضنية اتفق الطرفان على الصلح

فتركت قرطاجنة صقلية لروما ودفعت لها تعويضاً .

كان هذا هو صلح سنة ٢٤١ الذي أبرمه هاملكار أثناء دفاعه عن جبل ايرايكس ، وقد خلف هذا الصلح مدينة قرطاجنة دولة ذات سيادة بلا قيود على أسطولها .

ولكن روما كسرت هذا الصلح في غضون ثلاث سنوات .
وبقيت شروط ريجيولاس ماثلة في ذهن هانيبال .



كان هانيبال يحرص على أن تكون لديه خريطة اينما ذهب ، وكان يحتفظ بها لاستعماله الخاص ويطلب إلى الكتبة اليونانيين ملئوها على الشواطئ فيحددون عليها سلاسل الجبال ومدائن الساحل الشمالى للبحر الأبيض المتوسط .

وأبلغ الجواسيس هانيبال أن أبواب معبد جانوس أغلقت بعد أن ظلت مفتوحة أجيالا وكان ذلك ايذانا بأن الجمهورية أصبحت في حالة سلام . ومع ذلك فإن اسطولا رومانيا عبر بحر الادرياتيكى إلى الجانب البعيد لتأديب القرصنة (كان بايراس

قد ظهر ثانية على الجانب الآخر من بحر الادرياتيكي .

بعد عام ٢٢٦ (سنة الاتفاق مع هاسدروبال) حدثت تغييرات كثيرة ؛ ففي شمال إيطاليا ثارت قبائل الكلت على طول نهر بو فزحفت الجيوش من نهر التيبر لاختضاعها وإنشاء نقط حدود على نهر التيبر. وفي عام ٢٢٤ عبرت هذه الجيوش نهر بو ، وبعد ذلك بعامين استولت على ميلانو مدينة الكلت الرئيسية . وفي الوقت ذاته سحقت حملة أخرى آخر مقاومة سكان الجزيرة في سردينيا .

وفي عام ٢١٩ غادرت السفن الميناء بأقصى سرعة لتعبر البحر الادرياتيكي مرة أخرى . وأزيلت القوات البرية على ساحل دلماسيا (ايبريا) التي كانت محمية رومانية . وكان التأثير في هذه الحالة ديمتريوس من فاروس ، فلاذ بالفرار إلى مقدونيا .

أحدثت هذه التغييرات التي طرأت على الخريطة صورة لم يكن هانيبال ليستطيع أن يخططها ، فإلى الشرق أصبح الادرياتيكي بحراً رومانياً مغلقاً ، وإلى غرب إيطاليا سيطرت روما على البحر الواقع خلف سردينيا وكورسيكا ؛ فإلى أين سيمضي زحف روما في البحر الأبيض ؟ أن قرطاجنة لانزال تسيطر على الطرف الغربي من هذا البحر بحيث يدنو الشاطئان الأفريقي والأسباني من

بعضهما ، وفي منتصف مسافة هذا الطرف توجد جزر باين
والبليار الصغيرة وميناء ساجتم ..

ثم دخل الرسل الرومان أسبانيا ليعانوا الحماية على ساجتم ،
وخلف هؤلاء الرسل بدأت روما تعي قوات برية ضخمة
وأعدت حوالى ٢٠٠ سفينة حربية لاطلاقها من مراسيها الشتوية
ألم تكن هذه القوة تعباً ضد أسبانيا ؟

وفي أوائل صيف عام ٢١٩ اتخذ هانيبال قراراً بالعدل ..
كان جيشه يتكون أساساً من المجندين الأسبان ، وقد حاول
اقتحام القلعة المشيدة على مرتفعات ساجتم ولكنه فشل لأنه
لم يكن يملك آلات الحصار ولا المهارة الهندسية التي تمكنه من
الاقتراب من المنحدرات الصخرية . وأحاط هانيبال بساجتم
وانتظر استسلام المدافعين عنها ، بل لقد ترك القيادة لماهربال
وانطلق هو إلى سهول الكلت غيرة المستقرة .. وخلال هذه
الشهور وضعت زوجته طفلاً .

وبداخل ساجتم راح السكان ينتظرون وصول العون إليهم
من روما حليفهم ، ولكن انتظارهم طال بدون جدوى ، وبعد
ثمانية شهور ، اقتحم القرطاجنيون سور المدينة العتيق . فانهت

المقاومة . وأمر هانديال بمنح أعوانه مكافآت مالية ، وارسال السلع التي استولى الجيش عليها إلى قرطاجنة ..



أما ما حدث في قاعات مجلس الشيوخ بروما خلال تلك الشهور من عام ٢١٩ فأمر يكتفه الغموض . إلا أنه لانزاع في أنه — بعد عودة الأسطول من البحر الادرياتيكي — دارت مناقشات طويلة حول موضوع قرطاجنة ، وتحرك هانديال ضد ساجنتم ؛ فنادى بعض كبار النبلاء ، وبالأخص من أفراد أسرتي كلودي وسيليو ، بضرورة إجراء تعبئة عامة ضد قرطاجنة بينما رأى القايون ذرو النفوذ الالتجاء إلى المفاوضات ، ويقال أن أحد الآباء الكبار وهو فابيوس فيرا كوزس قال : « إن الحديث عن الحرب في هذه القاعة شيء ، والاشتراك في معركة بالميدان شيء آخر ، .

ويبدو أن تلك كانت مناسبة من المناسبات التي لم يتفق فيها مجلس الشيوخ صاحب السلطان مع الشعب ، فقد خاب أفق البحر الجديد لب كثير من الزعماء إذ كانت هناك موارد كثيرة بكرة

وراء سوا حلهم كما كانت أمامهم فرصة للاشتراك في التجارة فيما وراء البحار بعد أن ظلوا محرومين منها حتى ذلك العهد (وبالأخص بعد أن صدر قانون في سنة ٢١٩ الذي أباح لأعضاء مجلس الشيوخ الاشتغال بمثل هذه التجارة) .

ومن ناحية أخرى لم تنس المجالس الرومانية الشعبية الخسائر الفادحة التي حلت بالارواح أثناء حرب ٢٦٤ - ١٤١ وكيف تدهورت حالة الزراعة بسبب غيبة الرجال في الحرب .

كانت المجالس الشعبية قد أيدت العمليات الحربية ضد الغال لسبب بسيط ، وهو أن سحق الغال سيؤدي إلى زيادة الرقعة الزراعية في إيطاليا نفسها فضلا عن القصاص من الغال الذين سبق أن اكتسحوا روما نفسها ؛ ولهذا فإن هذه المجالس لم تر ما يدعو للاشتباك في حرب أخرى دموية مع « الفيديقيين » ، قد تعود على الشعب بالوبال .

وهكذا طالت المناقشات ، وظلت أبواب معبد جانوس مغلقة ، ولم يرسل الأسطول إلى ساجنتم فلما جاءت الأنباء بسقوط ساجنتم في قبضة هانيبال ، نشط جناح كلوديان - سيبو بمجلس الشيوخ يطالب بإعلان الحرب بحجة أن حليفا من حلفاء مجلس

الشيوخ والشعب الروماني تعرض للهجوم عليه . وقال أفراد هذا الفريق أنه يمكن تغطية نفقات الحرب من فضة المناجم الإسبانية بعد الاستيلاء عليها .

وأخيراً أمكن الوصول إلى حل وسط ، فأرسل وفد للمفاوضة مع قرطاجنة ، وتقرر أنه إذا فشل الوفد في مفاوضاته ، فلامفر من إعلان الحرب .

وأبحر خمسة مندوبون إلى قرطاجنة في شهر مارس عام ٢١٨ لمفاوضة القرطاجنيين .

ولكن هذا الوفد فشل في مهمته فقد رفض القرطاجنيون الاعتراف بأن من حق روما التدخل في شئون قرطاجنة وفرض حمايتها على المدن الأخرى

وهكذا نشأت حالة الحرب بين قرطاجنة وروما وأرشد القرطاجنيون رسلا إلى هانيبال يبلغونه بما حدث وفي الوقت ذاته ما كاد رسل روما يعودون إليها ويفضون بما حدث حتى فتحت أبواب معبد جانوس إيذاناً بقيام الحرب .

الفصل الثانى

الرحلة فوق جبال الألب

أسفرت انتخابات شهر مارس فى روما عن انتخاب بابليوس كورنيليوس سيبو قنصلاً عن العامة ، وكان رجلاً عادياً ولكنه يتمتع بفطنة وبعد نظر غير عاديين ، وكانت أسرتا كورنلي وسيبو قد قدمت للدولة عدداً من القادة الناجحين احيالا طويلاً ، ولعل ذلك كان هو السبب فى انتخاب بابليوس . وسرعان ما عهد اليه بقيادة الجيش الذى أعد لغزو اسبانيا لأن أسرته كانت تنادى بالتوسع فيما وراء البحار وضم اسبانيا إلى املاك روما ، وهو المشروع الذى تأخر عاماً نتيجة لمعارضة المجالس الشعبية .

والواقع أن هذا التأخير جعل من الضرورى تغيير خطة الحرب فقد ضاعف ساجنتم ولم تعد تصالح قاعدة للنزول إلى هذا

الساحل ، ومن ثم تقرر شن الحرب في جبهتين ، فتبحر الحملة الكبرى من قاعدة صقلية لتنزل على الساحل الاقريقي ثم تزحف بسرعة على قدر الامكان لتحاصر قرطاجنة نفسها بينما تسعى الحملة الصغرى إلى الاستيلاء على خط جبال البرنيز بمساعدة الصديقة مارسيليا ، حتى تستطيع تجميد حركة جيش قرطاجنة في اسبانيا ولا تمكنه من العودة إلى قرطاجنة للدفاع عنها .

وكانت آخر الانباء التي وردت من مارسيليا تقول بأن جيش قرطاجنة كان يزحف عبر نهر الحدود ، ابرو، وعلى رأسه هانيبال ، ولم ينزل بابليوس سيبو إلى البحر الا في الصيف ، حيث أبحر من مرفأ بيزا الجديد ومعه سفينتان كبيرتان وقوات متحالفة بلغ عددها ٢٤٠٠٠ مقاتل فضلا عن سفن الحراسة العتيقة وعددها ٦٠ سفينة بما فيها سفن نقل العتاد .

ونظراً لأن معظم الجنود لم يتعودوا على ركوب البحر من قبل فقد أصيبوا بدوار البحر وعندما وصل الاسطول إلى مصب نهر الرون وجد ضباط مارسيليا شديدي اللامعة في انتظاره ، حيث ابغوه ان هانيبال موجود في حوض نهر الرون .

وبهت بابليوس حينما سمع أن جيش هانيبال الاسباني موجود

لعلنا في نهر الغال وأن المسافة التي تفصله عن جيشه لا تتعدى مسيرة يومين . وبادر بإيفاد كتيبة من الفرسان النبلاء لفحص الموقف ، وضرب معسكره حتى يستطيع جنوده الاستراحة والتغلب على أثر دوار البحر . وبعد خمسة أيام عاد فرسانه واكدوا له إن معسكر الجيش القرطاجي مضروب فعلا عند أعالي النهر ، وأن بجيش هانيبال عدداً من الفيلة .

وتملكت الحيرة القائد الروماني ، وراح يتساءل عن سبب مجيء هانيبال إلى ما وراء الألب . . وجمع مستشاريه وراح يتبادل الرأي معهم ، وسرعان ما أجمع الكل على أن القرطاجيين يبيتون قطعاً أمراً على النهر ، وأن خير تصرف في هذا الوقت هو لقاء العدو والاشتباك في القتال معه . وتبعاً لذلك تحرك جيش روما على طول النهر بحذر شديد ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن العدو أخلى معسكره .

وهكذا ضاعت فرصة القتال من الرومان وحلفائهم . . كان القرطاجيون قد عبروا النهر قبل ذلك بثلاثة أيام . واختفوا في اتجاه الشمال . . لكن إلى أين ؟

واسقط في يد بابليوس . ولكنه سرعان ما أصدر أمره

إلى جيشه بالانطلاق إلى اسبانيا . فتحرك الأسطول مرة أخرى
في حراسة سفن الحراسة بقيادة أخيه . أما هو فعاد أدراجه إلى
بيزا ليتولى سلطاته باعتباره قنصلا . . . ولقد كان لهذا التصرف
من جانب سبيو العمل نتائج بعيدة الأثر :

كان واجبه الأول هو الدفاع عن حدود روما ، فإذا كان
من المتعذر عليه أن يفعل ذلك الآن على الرون فإنه سيفعله حتى
على نهر البو .

ما في الزحف الكبير من خيال وحقيقة

كشفت سجلات عام ٢١٨ عن الخطوات التي اتخذها بابليوس
أما على الجانب الآخر من الأحداث نفيم الصمت على تحركات
هانيبال بن هاملنكار فقد حرص المائد القرطاجي الكبير
على إخفاء نواياه إلا أنه من الممكن تمييز آثار تدل على خطته .

لقد توقع هانيبال إعلان روما الحرب عليه قبل ذلك بعام .
أي منذ قابله الرسولان في قرطاجنه الجديدة . ومن ثم فقد أجرى
حركة تنقلات بين قواته المسلحة خلال فصل الشتاء التالي ، فأرسل
بعض المجتهدين الأسبانيين إلى أفريقية : واستدعى بعض الحاميات
من أفريقية ، ومنح جنوده الأسبانيين اجازة غير عادية يقضونها

مع اسراتهم ، وأوفد رسلا إلى ذلك الشعب السحيق الذى يقيم
عند جبال الرنيز علاوة على الشعوب التى تقيم شمالا عبر الالب
حيث موطن الكلت فى شمال ايطاليا . وعهد إلى هؤلاء الرسل
بمعرفة موسم الحصاد على طول هذا الطريق وكميات المحاصيل
المرتقبة ، ودراسة خصائص الشعوب وهل هى شعوب حربية ،
ومعادية لروما أم لا . .

وقام هانيبال بحولة جنوبا فى شبه جزيرة ايبيريا إسبانيا خلال
فصل الشتاء ، بل لقد زار قادس .

وعاد هانيبال فعبّر سهول الاندلس فى أوائل الربيع ، ولم تكن
هناك أية علامة تدل على أنه يعتزم مغادرة إسبانيا التى أصبحت
موطن اسرة بارسا منذ عشرين عاماً .

وانهى هانيبال رحلته التفتيش الشتوية فى قصر بمدينة قرطاجنة
الجديدة حيث كانت تجارتها تتزايد عاما بعد عام ، وكانت العربات
تنقل إلى الميناء كميات من الفضة المستخرجة من المناجم تكفى
لتغطية نفقات قرطاجنة كلها .



كان هدف هانيبال من البقاء في أسبانيا هو الوفاء بالعهد الذي قطعه لأبيه بمعاونة روما مدى حياته .

ولقد كان من الواضح أن هانيبال كان يعد العدة في ذلك الحين للدفاع عن سواحل أسبانيا ، واتفق أن جاءه رسل من قرطاجنة في شهر أبريل وأبلغوه أن فاييوس قرر أن يخوض غمار الحرب . فأمر هانيبال جنوده الموجودين في أجازة بالعودة إلى المعسكرات الموجودة حول قرطاجنة الجديدة .

ولاريب في أنه عرف بعد ذلك من عملائه القرطاجنيين في موانئ صقلية أن الأسطول كان يحتشد هناك لغزو الساحل الأفريقي على مبعدة ١٠٠ ميل جنوبا ، بل أن السفن المعادية كانت قد بدأت تقوم بغارات استكشافية على الساحل بالقرب من قرطاجنة .

وأدرك هانيبال أن الخطر يحدق بالوطن الأصلي ، قرطاجنة ولما كانت قرطاجنة لا تملك أسطولا بحريا قويا يستطيع الدفاع عنها ، فقد قرر العمل بلا إبطاء ، فبعث بزوجته وطفله الذي لم يتجاوز العام من عمره إلى قرطاجنة في سفينة سريعة حتى يتخفف من كل التزام يقيد بهما أثناء الحرب الطاحنة التي قرر أن يخوضها مع روما .

وفي شهر مايو تبع هانيبال جيشه الذي بدأ يزحف شمالا على طول الساحل .



تحرك جيش هانيبال في فرق منفصلة بلا عجلة ، ويبدو أن جيشه كان مؤلفا من مجموعات تنتمي إلى دول مختلفة ، فكان فيه النوميديون والمغاربة الذين يركبون الجياد بلا أعنة ويقذفون العدو بحراهم الطويلة وصواريخهم بسرعة خاطفة ، ويندفعون بجيادهم كالسهام وبذلك يحسنون الكر والفر . . أما المشاة من الليبيين والبرابرة فكانوا يسيرون بخطى سريعة وهم شبه متلاصقين ، وقد ارتدوا دروعهم الحديدية وخوذاتهم الجلدية وحملوا تحت أبطهم رماحهم الطويلة. وكان هؤلاء يخضعون لقيادة ماهريال القائد الصارم الذي نخدم هاملكار .

وبالقرب من طوابير المشاة كانت فصائل البلياريين (الرماة) خفيفة الحركة تتجول هنا وهناك . وكان هؤلاء الجنود بارعين للغاية في استخدام نوع معين من الصواريخ يتكون من كرة نارية وآخر يتكون من كرة ثقيلة من الرصاص تستطيع تحطيم الدروع البرونزية .

كان الفرسان يشكون الجزء الأكبر من الجيش الزاحف .
وبينما كانت الفرق الأفريقية تشكل خلاصة الجيش ، فإن الأسبانين
كانوا هم قلب هذا الجيش ، وقد انضم اليهم رجال من قبائل أخرى
كثيرة يحملون أسلحة خفيفة . بينما تولى الأيبيريون حراسة المركبات
ولقد حرص هانيبال على تحميل مركبات كثيرة إضافية
بالأسلحة والأدوات الاحتياطية ، والحبوب والأدوية واحتياطي
هائل من الفضة ..

وكجيش زاحف ، كان جيش هانيبال ينقصه النظام والترابط
أما عدده فلم يكن ليقل عن خمسين ألف مقاتل وأربعين فيلاً
وهو عدد يكفي لنتيجة جميع المطالب وتحمل أشق المكاره .

ولم يكن خلف هانيبال أحد من حملة الأعلام كما جرى العرف
في الجيوش القديمة ، ذلك لأن هذا القائد كان يحرص على التحرر
من قيود القيادة ، ولهذا كان يندمج في الجنود ويتحدث اليهم
بلغاتهم القومية .

ولقد اتى الأعداء على هذا الجيش ثناء مستطاباً فيما بعد وقال
المؤرخون أن جيش هانيبال استطاع أن يحتفظ بوحدة وتماسكه

سنة عشر عاما متوالية بغير أن يحدث بين رجاله تدمير أو تمرد برغم
اختلاف الجنسيات التي كانوا ينتمون إليها . .



وعبر الجيش القرطاجنى الجرار نهر ابرو بغير أن يعوقه عائق.
وهنا حدث شيء غريب جداً ، ذلك أن هانيبال ظل يتسكع
بجيشة ثلاثة شهور ونصف بين النهر ومعارب جبال برنيز ، وهى
مسافة لا تزيد على ١٨٠ ميلا ولا يستغرق قطعها أكثر من ستة
أيام . . .

والواقع أن هانيبال لم يكن قد قرر بعد التوغل فى أوروبا
لأبعد مما فعل . وكان كل ما يهيمه فى ذلك الحين اخضاع ذلك الثالث
الآخر من أسبانيا عبر نهر ابرو حيث يقيم البرابرة ، لأنه كان
يعتمد أن اخضاع أسبانيا كلها لحكم قرطاجنة هو خير رسالة يؤديها
لوطنه الاصلى . وكان يرى ضرورة فتح الطريق الساحلى فى وجه
المواصلات وضممان الاستيلاء على المعبر الشرقى بجبال برنيز إذا
أريد الدفاع عن أسبانيا . .

وكان قد ترك أخاه الأصغر هاسدروبال لتولى القيادة فى

قرطاجنة الجديدة والاشراف على حاميات الجنوب ، ومع أن هاسدروبال لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من العمر . إلا أنه كان عبقرية سريعة البديهة ، حسن التصرف في المآزق . . أما أخوهما الأصغر ، ماجو ، فكان جندياً باسلاً يحظى بحب الجنود وولائهم التام . وقد تركه هانيبال في قرطاجنة الجديدة مع هاسدروبال وكانت هيئة أركان حرب هانيبال مكونة من ضباط قرطاجنيين أهمهم ماهر بال وهانو والآخر ابن أحد كبار نبلاء قرطاجنة . وكان هؤلاء الضباط من المحاربين المحنكين الذين يتمتعون بالمدهاء وسعة الخيلة علاوة على بغضهم الشديد لروما .

ولم إلى جانب هؤلاء جميعاً كان هناك جيش من الجواسيس والوكلاء الذين كانوا يجمعون المعلومات من مختلف موانئ البحر الأبيض . وكان هانيبال يعتمد عليهم اعتماداً كبيراً في تقديراته لمختلف المواقف واتخاذ قراراته



وبينما كان جيش هانيبال يتحرك ببطء نحو جبال برنيز جاءه جواسيسه بأنباء زادت من قلقه اذ قالوا له إن أساطيل الغزو الرومانية كانت تتجمع في سيراكيوز وبيزا

وبذلك أدرك هانيبال أن الرومان يعدون العدة لغزو أفريقيا ..
ولجأه ، حدث تغيير في الجيش . ترك هانيبال فرقة قوامها
١٠٠٠ رجل لإخضاع شعوب نهر ابرو والموانىء ، وتقدمت
قوات منها شمالا للاستيلاء على أقرب معبر في جبال برنين وهو
معبر برنوس ، أما بقية الجيش فبدأت تتساق التلال حيث
تجمعت قبائل الهاسك وراحت تراقب ما يحدث بهتة .

فما الذى أدى إلى حدوث هذا التغيير ؟

كان السبب هو ما وصل هانيبال من أن الرومان يعدون جيشاً
لغزو أسبانيا ..

وقرر هانيبال أن يهاجم الرومان في عقر دارهم رغم وثوقه
من أن جيشه كان سيتعرض إلى كثير من المكاره والأهوال ..

ولكن خطته كانت تنحصر في ضرورة حلبس جيوش الغزو
الرومانية بداخل إيطاليا نفسها وإبعاد الحرب عن قرطاجنة

وقبل أن يشرع هانيبال في الزحف أعلن أنه لن يرغب أحداً
على محاربة روما ، وإن من يريد من الجنود أن يعود إلى وطنه
يستطيع أن يفعل ذلك بلا خوف من عقاب أو قصاص ..

وفضل عشرة آلاف جندي من المكلت العودة إلى ديارهم ،
فأرسلهم هانيبال إلى هاسدروال .

ثم بدأ الزحف . . فترك هانيبال ضابطاً ومعه قوة كافية
لحراسة معبر جبال نهر برنيز ، والإبقاء على الطريق إلى أسبانيا
مفتوحاً .



كان الشاطئ البعيد للنهر يعج بقبائل معادية أسرع لمقاومة
آية محاولة لعبور النهر .

وشعر الجيش الزاحف بالقلق ، فقد تساقطت الأمطار
بغزارة ، بينما أشاعت كثابة الغابات الكثيفة الانقباض في نفوس
الجنود الأفريقيين والإيريين الذين اعتادوا القتال على أرض ممهدة
وفي جو صحو . .

وبعد أن درس هانيبال موقف المدافعين على الشاطئ الثاني
أمر بإحضار جميع أنواع القوارب من القرى المجاورة بعد دفع
ثمنها لأصحابها . حتى يتسنى للجيش عبور النهر . .

وأخيراً تمت الاستعدادات . . فبعث هانيبال بهانو بن بوملكار
ومعه طابور من فرسان إيريا للصعود إلى مخاضة في الرون

وعند ظهر اليوم التالى كانت الاجراءات قد اتخذت لعبور
النهر ، اذ انبعث دخان أسود من ناحية الشمال فدل ذلك على أن
هانو ورجاله عبروا النهر خفية بغير أن تراهم عصابات الغال المحاربة
التي كانت تقف على الشاطئ في الانتظار .. فأمر هانديال بالنفخ
في الأبواق ، وفي التو اندفع جنوده نحو النهر وهم يطلقون
صرخات عالية ، وعندئذ أخذ الغال يرددون أناشيدهم الحماسية ،
ويلوحون برماحهم الطويلة فوق رؤوسهم

ولم يكن الغال قد افترضوا لمثل هذا الهجوم من قبل . وعندما
بلغ صياح المهاجمين أقصاه ، ودفع القرطاجنيون جيادهم نحو الماء
تحت حماية الصواربع ظهر فرسان هانر المسلحين من الغابة وراء
قبائل الغال .. وفي بادئ الامر هاجم الغال القرطاجنيين ولكن
هؤلاء دفعوهم إلى الوراء عندما انقضوا عليهم بعد الهبوط من
القوارب ، وهكذا أصبح الغال بين نارين ، فأسقط في يدهم ،
ولاذوا بالفرار في الطريق الوحيد المفتوح أمامهم ، وبذلك نجحت
خدعة هانديال واستطاع جيشه عبور النهر بغير أن يتكبد خسائر
تذكر . .

وارتقى بعض جنود الاستكشاف أشجاراً عالية ثم قالوا لأنهم
يرون قمم جبال بعيدة على الأفق . .

ولم يضيع هانيبال وقتاً ، وأمر ضباطه بأن يعيدوا النظام
إلى الفرق

وكانت المرحلة التالية هي عبور جبال الألب ..
وألقي هانيبال خطاباً حماسياً قال فيه أن عبور هذه الجبال
ليس مهمة شاقة كما يتوهم الكثيرون ، وأضاف بأن النصر والمال
والنساء في انتظارهم على الجانب الآخر من الجبال بعد دحر
الرومان والقضاء على جهازهم الحربي البغيض الذي يهدد أمن
الجميع في كل لحظة ..

وبدأ زحف الجيش مرة أخرى ، وبدلاً من أن ينطلق هانيبال
بجيشه شمالاً ، مضى به بمحاذاة الشاطئ الشرقي لنهر الرون ومعه
مرشدون من الفري .. ثم انثنى في طريق جانبي يؤدي إلى جبال
الألب ..

وفي تلك الأثناء صدر أمر من روما بوقف حشد الأسطول
الذاهب إلى أفريقيا ، وإعادة الفرق التي كانت قد خصصت لغزو
قرطاجنة إلى إيطاليا .. وتحت قيادة القنصل الثاني تيبريوس
سمبرونيوس لونجاس سارت هذه الفرق شمالاً إلى نهر بو حيث
كان من المتوقع أن يظهر هانيبال ..

* * *

ليست جبال الالب خطأ مستقيماً من الجبال ولكنها سلسلة من
الحواجز المتداخلة في بعضها تتوسطها البحيرات في أغلب الاحايين
وترتفع إلى علو شاهق في أكثر اجزائها حيث تكسو الثلوج قممها
ومن العجيب أن الجبال متشابهة في خصائصها في معظم اجزائها .
فإذا أردت تسلقها فإن عليك أولاً أن تتسلق حافة خارجية إلى
واد أعلى . ولما كان الماء يسلك دائماً أسهل الطرق إلى أسفل فإن
الأنهار تجري بكثرة في هذه الجبال فإذا كنت غريباً فإن عليك
أن تستعين بمُرشد وإلا ضللت طريقك ، وبالتالي فقدت حياتك .

وقد حدث قبل مجيء هانيبال إلى جبال الالب ، أن هاجرت
بعض الشعوب القبلية عبر جبال الالب ، ولا ريب في أن السكك
المقيمين على طول نهر الرون يعرفون كل شيء عن أقرب المعابر
وأكثرها أمناً . . ولكن التاريخ لم يسجل أن جيشاً من الأجانب
عبر الجبال قبل ذلك العهد ..

كان جيش القرطاجنيين يتألف من ٣٠٠٠٠ من المشاة و ٨٠٠٠
فارس علاوة على قافلة طويلة جداً من المركبات وحوالي ٣٧ فيلاً .
ولم يواجه الجيش مشكلات صعبة في مراحل التسلق الأولى ،

إذ كانت الصحوة الرئيسية كامنة في عبور قمة الجبل والهبوط إلى أول تل ، وهي مرحلة تستغرق حوالى يومين .

وكانت هناك مشكلة أخرى ، وتلك هي العمل على أبقاء الطريق مفتوحاً فيما وراء البرنيز حتى الأهار الإيطالية ، وإلا أمكن فصل جيش قرطاجنة تماماً عن قاعدته في اسبانيا .

وبرغم الجهود التي بذلها المؤرخون ، فإن أحداً منهم لم يستطع أن يحدد الطريق الذى سلكه هانيبال في عبور جبال الالب ومعه هذا الجيش الجرار .

وفي طريقه إلى جبال الالب مر هانيبال وجيشه بعشرات من القرى والجزر في وادى السكك ، فزود منها بالثياب الصوفية اللازمة لجيشه ، والادلاء المملين بمسالك الجبال ومعابرها . . وكان لا يفتأ يترك فصائل من الجنود على طول الطريق حتى يؤمن طريق جيشه فيما إذا اضطر للتراجع .

ومن عجب أن هانيبال لم ينثن بجيشه يمينا في اتجاهه إلى الالب وإنما انثنى يساراً . ثم شرع يتساق حافة الجبل حيث يقيم السكك الجيليون ، ولم يكن من شك في أن هؤلاء القوم لا يعرفون شيئاً عن الجيش القرطاجنى أكثر من أنه يحمل معه ثروة من الحضارة

وجياداً وسلماً وفضة كثيرة . . . وقد وقف هانيبال وضباطه يتأملون الموقف أعلاهم ، ثم صدر الأمر للجيش بالتوقف عن التقدم ، فقد كان آخر ما يفكرون فيه هو مهاجمة البرابرة على حافة الجبال . . . ومن ثم أرفد هانيبال بعض المتحدثين باسمه من أهالي السهول مع بعض قدماء المحاربين للمفاوضة .

وعاد الرسل وقرروا أن المدافعين عن الجبل من البرابرة الأشداء وأنهم اعتادوا امتشاق السلاح بالنهار والعودة إلى مدينتهم بالليل . . .

واضطر هانيبال إلى انتظار هبوط الظلام على مضض فإذا كان الليل أصدر أمره بأن تبقى نيران التدفئة مشتعلة على أن يبادر الجيش باستئناف التقدم .

وتولى المرشدون توجيه الجيش إلى حيث كان البرابرة يعسكرون أثناء النهار ، وأخذ الزاحفون يتحسسون طريقهم في الظلام بحذر شديد .

وقبل طلوع شمس اليوم التالي عاد البرابرة إلى معسكراتهم فوجدوها مكتظة بالجيش القرطاجي ، فتولاهم الفرع ولاذوا بالفرار إلى الوادي الأسفل .

وبدأ الجيش يهبط من القمة وكان يقضى على كل مقاومة يلقاها
في طريقه إلى أن وصلت طلائعه إلى مدينة البرارة فالفأها مهجورة
ولكنه عثر فيها على مؤن وحبوب تكفى لإطعام جيشه وحيواناته
ثلاثة أيام .

وضرب هانيبال معسكره في هذه المدينة . ولكنه لم يشأ البقاء
طويلا في هذا الوادي عند منتصف الطريق ، ومن ثم استأنف
الجيش تحركه في اليوم التالي ، فإذا كان اليوم الثالث رأت طبيعة
الجيش مجموعات من أشخاص يرتدون ثياب الحيوانات ويلوحون
بأغصان الأشجار دلالة على أنهم قوم مسالمون . وقد عرض
هؤلاء على هانيبال أن يبيعوه ماشيتهم وأن يتولوا إرشاد الجيش
إلى الطريق . وقبل القرطاجنيون هذه العروض بتحفظ .

وبعد يوم آخر وصل الجيش إلى نقطة تمكنه من رؤية قلعة
الالب من أعلى قمة فيه . .

وكان البرد قد اشتد إلى درجة تكاد تجمد الاطراف . واشتد
الاعياء بالجنود ، ولكن هانيبال رأى أن يستمر الجيش في تقدمه .

وبعد أهوال كثيرة وصل الجيش إلى المعبر في اليوم التاسع
من بدء زحفه . . وهنا أمر هانيبال بالتوقف عن التقدم لمدة

يومين ريثما يستريح الجنود . وخلال هذين اليومين مات معظم
الذين أصيبوا بالمرض أثناء الزحف .

وفي صباح اليوم الثالث صحا الجو ، وتهيأ الجنود للمسير وهم
يشعرون بأن أطرافهم قد تجمدت بسبب شدة البرد .

واستدعى هانيبال قواد مختلف الفرق وصعد بهم فوق صخرة
عالية ، وراح يتطلع ناحية الشرق فرأى أسفل الجبل غابة وحقولاً
خضراء تداق كالجواهر على البعد . إنها حقول إيطاليا .
وافتر ثغر هانيبال عن إبتسامة ثم قال :

ليست هذه جدران إيطاليا فحسب ، ولكنها أيضاً جدران
روما . وهناك . في هذا الوادي توجد المدن الغنية العامرة بالنساء
وكل ما عليكم أن تفعلوه هو أن تذهبوا إل هناك .

وحمل القواد رسالة هانيبال إلى رجالهم الذين انتهكهم الأعياء ،
وسرعان ما انتقلت القصة من فم لآخر إلى أن بلغت صفوف
المؤخرة .

كان الكل يقول : لقد انتهت المتاعب . . ونحن ذاهبون الآن
إلى المدن العامرة حيث يوجد اللحم والخمر والدفء . . والغنائم
الذهبية . . ونساء يملآن لنا الشراب !

وتحرك الجيش وراء أمل جديد .



لم يكن هبوط الجبل سهلاً كما تصور الجنود نظراً لأن الثلج كان يكسو الأرض . واستغرقت عملية الهبوط ثلاثة أيام كاملة . وأخيراً دخل الجيش الغابة . . فأشعل النيران للتدفئة وترك الحيوانات ترعى بعد أن ظلت ثلاثة أيام بلا طعام .

وهكذا عبر هانديال وجيشه جبال الالب الشاهقة في خمسة عشر يوماً . . ولكن الجيش فقد كثيراً من رجاله في هذه المغامرة إذ لم يتبق منه غير ١٢٠٠٠ أفريقي من الشاة و ٨٠٠٠ من الاسبانيين و ٦٠٠٠ من الفرسان، أى ٢٦٠٠٠ جندي ساروا في أثر هانديال على طول مجرى الماء المؤدى إلى نهر البو .

وعندما بلغوا أو مستعمرة للغال على سفح التل لم يجدوها كما كان يتوقعون .

مناوشات :

لأريب في أن هانديال بهت عندما تبين ما كان في انتظاره على أثر دخوله مدينة كازالين في شهر نوفمبر عام ٢١٨ . . فإنه لم يجد أثراً لأعدائه البوى والانسوبر ، وكانت أقرب القبائل تستعد

لنقضاء فصل الشتاء في مدنها ، ورسم الخطط لتسوية منازعاتها بعد
انقضاء فصل الشتاء

وكانت روما قد عمدت إلى تقوية نقط حمايتها على طول النهر
الكبير أسفل التل . . وراح الغال يتجمعون في طريق هانيبال
وجيشه وهم يستعرضون أسلحتهم ويتطاعون إلى القرطاجنيين
في فضول ظاهري وعداء واضح .

وكان رد الفعل عنيفاً في نفوس القرطاجنيين ، فقد أغضبهم
هذا العداء السافر ، فاكثسحوا مدينة الغال الرئيسية تورين ، وطردها
أهلها منها .

وبعد أن سمح هانيبال لجيشه براحة قصيرة تأهباً للقتال ،
بادر فقاد الجيش غرباً عبر مجرى الماء في اتجاه ميلانو ومدن البوى
والانسوبر . وكان المطر ينهمر بغزارة فراح القرطاجنيون يتلبسون
طريقهم بحذر في تلك الأرض الغريبة . . فلما اقتربوا من نهر
تسينوس اكتشفوا أن جيشاً رومانياً كان قادماً نحوهم على نفس
شاطئ النهر .

لم يضيع بابليوس كرونيليوس سبباً وقتاً في ملاقات هانيبال
مرة أخرى . فبعد أن ترك القنصل الروماني حملته عند الرون ،

نزل إلى ييزا وشق طريقه شمالا لمقابلة الفرق التي كانت في طريقها
لوضع حد لمشاغبات الغال .

ولعل بابليوس والرومان عموما لم يكونوا يتوقعون نجاح
القرطاجي الشاب في تخطي الالاب بجيشه في هذا الفصل . وعلى كل
حال ، كان من واجب القنصل أن يغلق الطريق في وجه القائد
القرطاجي إذا حاول عبور جبال الالاب ، ومن ثم أسرع بابليوس
نحو المعابر ، فعلم أن هانيبال استطاع الوصول إلى نهر بوالمكشوف
واستولت الدمشة على بابليوس ، ولكنه يادر فائتي بجيشه
شمالا على طول نهر تيسينو إلى حيث مصبه في نهر بو العظيم ، فقد
كان من حسن الحظ أن يبادر بقاء هانيبال بعد أن ثبت أنه ثعلب
ماكر يستطيع الافلات من المآزق ببراعة لا تبارى .

انطلق بابليوس بجيشه إلى الشمال في حذر شديد . ، وعندما
استدعى ضباط أركان حربه لعقد مؤتمر أخير ، قال لهم : لا تظنوا
أن قائد العدو شجاع لأنه عبر جبال الالاب بجيشه فإنه إنما فعل ذلك
رغمًا عنه خشية النتائج التي كانت ستترتب على امتناعه عن العبور
ولا تنسوا أن هذه المغامرة كلفته أرواحا كثيرة ، كما أن جنوده
لا تزال تعاني من آثار البرد ونقص الطعام ، أما جيادهم فقد هزلت

ولهذا فإن من حسن حظ الرومان أنكم تمتازون عن العدو بالنشاط والحيوية .

ان ما قاله بابليوس كان قريباً من الحقيقة .. ولا ريب أنه كان على علم بحقيقة جيش هانيبال .

والواقع أن هانيبال كان يشعر بقاق شديد في ذلك الحين لأنه لم يسبق له أن واجه الفرق الرومانية .. وعلاوة على ذلك فإن سديو كان يتمتع بميزة هائلة وهي وجود احتياطي لا ينفد من القوة البشرية في جمهورية روما البالغ تعداد القادرين على حمل السلاح فيها ٧٧٠.٠٠٠ شخص على أقل تقدير .. أما هو ، أى هانيبال بن هاملكار ، فلم يكن له مايسانده في إيطاليا بعد أن أغلق الثلج جميع ممرات الألب وقطع الرومان طريقه إلى جبال رينز ؛ وعلى كلا جانبيه البحر الذي يسيطر عليه عدوه .. وهكذا أصبح جيشه محاصراً في إيطاليا لا سبيل للاتصال بينه وبين قرطاجنة أو أية دولة أخرى صديقة .

وفي وادي نهر البو ألقى القرطاجنيون أنفسهم في موقف غامض وبالاخص لأن حلفائهم المرتقبين (الغال) لم ينضموا اليهم .. وهنا قال هانيبال لقواد جيشه عبارة مأثورة : هناك شيء واحد محقق ، ذلك أننا لا نستطيع العودة من حيث أنينا .

ولجأ هانيبال إلى خدعة فريدة لرفع الروح المعنوية بين جنوده.

أمر باحضار مجموعة من أسرى الغال الذين امتازوا بالوحشية في القتال . وكانوا مكبلين بالأغلال وقد تمزقت ثيابهم وعلتها القذارة . والقي الضباط بمجموعتين من الأسلحة الثمينة أمام الأسرى ودرعين . وقال هانيبال أنه سيدع كل اثنين من الأسرى يشتبكان معاً في العراق فمن قتل غريمه فإنه فاز بالحرية والسلاح ..

ورأى الأسرى في هذا العرض فرصة محتملة لاستعادة حريتهم، وعندما فكت أغلال اثنين منهم اشتبكا في قتال وحشي رهيب ، بينما راح الفرطاجنيون يراقبونهم باهتمام وحماس ، إلى أن سقط أحدهما يتخبط في دمه . ومع ذلك ظل المهزوم يقاتل في استماته حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ..

وفهم جنود الجيش مغزى هذه الظاهرة . كان عليهم أن يقاتلوا حتى ينتصروا أو يموتوا ..

وفي تلك الليلة أخذ الضباط يتجولون في المعسكر وهم يرددون رسالة من هانيبال للجنود .

د من اليوم سيتمتع الجنود من جميع الجنسيات بنفس الامتيازات

التي يتمتع بها القرطاجنيون وجميع الأرقاء الذين سيرايقون سادتهم
هنا ، سوف يحصلون على حريتهم بعد أن يدفع هانيبال ثمنها
للسادة . .

وهكذا أصبح جميع الجنود متساوين بداخل الجيش .
وقطع هانيبال على نفسه عهداً جديداً لجنوده . . قال لهم إن
الجنود الذين يرغبون في العودة إلى ديارهم سوف تتحقق رغبتهم
بمجرد إحراز النصر في إيطاليا . .

و ذات صباح كثيف الضباب وجد الجيشان نفسيهما وجهاً لوجه
على شاطئ نهر تيسينو . . فتحركت الفرق الرومانية المنظمة
إلى الأمام أوتوماتيكياً متهيئة للقتال ، بينما أخذ الفرسان أما كنهم
على الجناحين لحمايتهم . وتحركوا نحو الكتلة غير الواضحة من
القرطاجنيين ولسكنهم لم يتقدموا بعيداً .

ذلك لأن فرسان الكتلة والبرابرة ظهروا على الجانبين البعيدين
وتحركت كتل سريعة منقضة على الرومان الراكبين . . وكان هذا
هو كل شيء . .

فقد كان الأفريقيون يتفوقون على الفصائل الرومانية من الناحية
العددية ، فلم تستطع مقاومة هجومهم .

ونسقط القنصل الروماني نفسه جريحاً بين فرسانه . . . ويقال
أن ابنه أنقذه من الموت في آخر لحظة .

وبرز النوميديون بغتة ؛ وكانوا يقومون بحركة التفاف حول
فرق المشاة الرومانية ، ، ولجأة لمعت حراب النوميديين . . وهنا
أصدر مساعد بابايوس أمراً يدل على الحصافة بعد أن تأكد من
أن الجيش فقد تأييد جناحيه . ، وكان هذا الأمر يقضى بالانسحاب
قوات المشاة إلى معسكرها وفعلت تراجع الفرق الرومانية
وهي تحمل جرحاها معها . . . وتبعهم الأفريقيون مسافة قصيرة ،
ثم كفوا عن ملاحقتهم .

كانت هذه مناوشة غريبة . . . وكان من الواضح أن هانيبال
لم يشأ أن يخوض معركة حاسمة مع الرومان لا مرة في نفسه .
وهو حينما فعل ذلك ظفرباً أول فرصة لدراسة خصائص الفرق
الرومانية عند القتال لما أثر عن رجالها من صلابة عود ونظام
صارم في ميدان المعركة .

كانت الفرقة الرومانية المقاتلة تتألف من ٦٥٠٠ من المشاة
وحوالي ٤٠٠ فارس ، بينما توجد على جناحيها قوات أخرى
من حلفاء الإيطاليين . .

وأدرك هانيبال أن في هذا النظام تكمن قوة جهاز روما
الحربي .. فقد تدربت الفرق المقاتلة على الاحتفاظ بنظامها مهما
كانت الظروف ..

وأدرك هانيبال أيضاً أن هذه الفرق لا تستطيع أن تفعل شيئاً
لم تتدرب عليه ، إذ أنها كانت تعتمد على الأوامر التي تصدر
لها - أي على ما يراه قوادها ، - فإذا يستطيع هؤلاء القواد أن
يفعلوا إذا واجهوا موقفاً غريباً تماماً عليهم؟ وماذا يكون تصرفهم
إذا خدعوا فارتكبوا خطأ؟

طموح تيريوس سمبورويناس :

استطاع هانيبال أن يحقق أشياء كثيرة في تيسيتو ، فقد استرد
النوميديون الأثداء ثقتهم في أنفسهم عقب مراجعة الرومان بعد
أن نكل بهم هؤلاء عند الرون ، ودرس هانيبال أيضاً الفرق
الرومانية المنظمة أثناء القتال لمدة ثلاثة أيام كاملة ، وأهم من هذا
كله ما فاز به القرطاجنيون من هيبة في أعين الغال ، فقد أوفدوا
مندوبين لمراقبة انسحاب الأعلام الرومانية أمام القرطاجنيين .

وفي تلك الليلة تمرد ٢٠٠٠ جندي من الغال الذين يعملون

في صفوف الرومانيين وبعد أن قتلوا ضباطهم وسرقوا جياداً
نافعة ، هربوا من المعسكر وسعوا إلى هانيبال ، وعرضوا عليه
الإنضمام لجيشه ، فقدم لهم لحماً وخمراً وهدايا من الفضة واقترح
عليهم العودة إلى قراهم لكي يشرحوا لسكانها إن الغنائم والشرف
في إنتظار كل من يرغب في طرد الرومان من وطنه ، واحتفظ
هانيبال ببعض من توسم فيهم الجرأة والنفع ، لكي يعودوا إلى
زملائهم الباقين في معسكرات الرومان ، ويحدثوهم بما قال ،
ويعودوا إليه ليبلغوه بما يحدث في تلك المعسكرات، وبذلك أنشأ
هانيبال نواة للجاسوسية .

وبعد معركة تيسينو بوقت قصير أقبل متحدثون باسم البوي،
وألقوا خطابات مطولة رحبوا فيها بهانيبال وقدموا له ثلاثة
من الأسرى الرومان برتبة قائد منطقة . ورد هانيبال التحية
باحترام واقترح احتفاظ البوي بالرهائن ومبادلتهم بعدد من
أسرى الغال الموجودين لدى الرومان .

وفي الوقت ذاته أطلق هانيبال سراح الجنود الغال الذين
أسرهم النوميديون بدون فدية وطلب اليهم العودة إلى ديارهم
وشرح مارأوا (كان هؤلاء الأسرى أول من أطلق هانيبال

سراحهم على ذلك النحو غير المرتقب لكي يتولوا الدعاية له في
إيطاليا ذاتها .

وقد كان لهذه الخطة الحكيمة أثرها الفعال ، إذ عاد بعض
هؤلاء الأسرى إلى هانيبال ليبلغوه إن جيشاً رومانياً آخر يقترب
قادمًا من الجنوب ، ولكن القرطاجنيين لم يظهروا أى فرع أمام
هذه الأنباء واستمروا في الاستعداد للخطوة التالية .



انتخبت المجالس الشعبية القنصل الثانى تيبريوس سمبرويناس
لونجاس ، وكان رجلاً طموحاً حقق بعض النجاح حينما استولى
على جزيره مالطة وأغار على الساحل الأفريقى . وقد جعله هذا
النجاح يزداد ثقة بنفسه ، فقرر أن يزحف لملاقاة القرطاجنيين -
نكاية في زميله الفاشل القنصل بابليوس كورنيليوس

وعندما التقى تيبريوس بكورنيليوس ألقاه جريحاً وملازماً
للفراش عند خطوط الجيش الرومانى فى بلاسنتيا وهى نقطة
الحراسة الخارجية على نهر بو .

ولم يبد كورنيليوس أية رغبة فى العودة إلى منازل هانيبا

متذرعاً بأن جنوده في حالة يرثى لها من الاعياء ، وأضاف بأن هؤلاء الجنود يستطيعون حراسة الخط من بلاستيا إلى كريمونا بأمان خلال فصل الشتاء ريثما يحىء المدد في الربيع .

ولم يرتح القنصل تيربوس لحديث زميله ، وأغضبه أن يترك الأفريقيين يعيشون في إيطاليا نفسها فساداً .

والواقع أن هذا الحوار دار بين الزميلين في شهر ديسمبر وهو الشهر السابق على إجراء انتخابات القنصلين في روما حسبما جرت عليه العادة في كل عام ، ولهذا كان تيربوس يخشى أن ينتخب الشعب الروماني قنصلاً غيره إذا لم يحرز نصراً حاسماً على هانيبال .

واستطاع تيربوس أن يقنع زميله كورنيليوس بضرورة استئلاف القتال ، ولما كان الأخير جريحاً عاجزاً عن الحركة فقد وافق على أن يتولى تيربوس شؤون الجيش .

وحانت لحظة العمل بأسرع مما كان تيربوس يترقب ، فقد اقتحمت قوة استكشاف رومانية راكبة مراعى النوميديين ، وتعقبتهن إلى مكان الفرسان القرطاجنيين ، وتحرك الفرسان الرومانيون

لتأييد قوة الاستكشاف ، وقاد ثيبريوس فرقتين من فرق مشاته خارج بوابة المعسكر وتحدى القرطاجنيين للقتال ، ولكن هؤلاء تراجعوا إلى ماوراء نهر تريبيا مما أقنع القنصل الروماني بأن الفينيقيين المراوغين قد لا يستطيعون الصمود أمام فرقه المشهورة . وهطل المطر والثلج بغزارة في ذلك الحين ، فحال دون القيام بأية عمليات حربية : فأغاظ ذلك ثيبريوس وانتظر تحسن الطقس على مضض .

وذات ليلة أيقظ ثيبريوس بعض ضباطه في ساعات الليل الأخيرة ، وأبلغوه أن النوميديين يهاجمون إحدى بوابات المعسكر ونظراً لأنه أوقف من نومه فجأة ، فإنه لم يتريث ليتساءل لماذا ظهر القرطاجنيون في هذه الساعة ، وبادر فأصدر أمراً لجناحي الفرسان بالركوب والانطلاق ، كما أمر فرق المشاة بالتشكيل تحت السلاح في شوارع المعسكر ، وذهب بنفسه ليشرف على حمل الأعلام ، وفي الخارج كان الثلج كثيفاً والبرد قارساً .

معركة في الثامح :

فيما بعد قال المؤرخون عن هانيبال : إنه لم يشعر يوماً بأنه أجرى ما فيه الكفاية لاعداد رجاله . وقد اتضح فيما بعد أن هانيبال

بدأ استعداداته لهذه الليلة المشهودة على نهر تريبا قبل ذلك بوقت كاف بعد أن غر بل المعلومات التي جاءه الجواسيس بها عن معسكرات الرومان وكون لنفسه رأيا في ثيبريوس . ثم خرج بنفسه لدراسة الوادي الذي غمرته المياه على جانب النهر الذي يعسكر القرطاجنيون عنده وما يحيط به من تلال صغيرة بينها ممرات ضيقة .

وكان الضابط ماجو يرافق هانيبال أثناء هذا الجولة الاستطلاعية فطلب هانيبال منه إن ينتقى عشرة رجال من مختلف الوحدات ممن يمكن الاعتماد عليهم في أسوأ الظروف ، ثم يختار كل من هؤلاء الرجال مائة رجل موثوق بهم ، على أن يتولى ماجو قيادة هؤلاء الرجال الآلاف الأشداء ، وأن يتخذ ماجو ورجاله أما كنهم في أحد الممرات الاستراتيجية الضيقة .

وقال هانيبال ضاحكا : إن أحدا لن يفكر في البحث عنكم هنا !

ثم أصدر لماجو بعض تعليمات تفصيلية . .

وعلى بعد نصف ميل من الممر الضيق ، وفي اتجاه المعسكر القرطاجني ، كان هناك واد يغليه الطين وينحدر إلى أعلى انحداراً خفيفاً نحو أرض صلبة . وهنا راح هانيبال يشرف على حفر

خندق وتغطيته بحيث لا يستطيع أحد أن يتبينه من بعيد . وذلك عملاً بالقول المأثور الذى سمعه من أبيه أثناء طفولته وهو : « دع الأرض تقاتل من أجلك » .

وبعد أن سار خمسمائة من النوميديين إلى معسكر الرومان ، وذهب ماجو برجاله الالف إلى الممر الضيق فى تلك الليلة ، قال هانيبال لضباطه ،

بعد غد ستفتح الطرق المؤدية إلى المدن اللاتينية . فهل تعتقدون أن هذه المدن عامرة بالثراء الذى سمعنا عنه ؟ أم أن الامر لا يعدو مجرد شائعات ؟

فأجاب القواد الكبار بأنهم يعتقدون أن ذلك حقيقة لانزاع فيها .

فقال هانيبال : اذن قولوا ذلك لرجالكم ..

وفى تلك الليلة التى ساءت فيها الاحوال الجوية إلى أقصى حد قرر هانيبال بن هاملكار أن يبادى فرق المشاة الرومانية بالهجوم بعد أن بذل قصارى جهده ليجعل أرض المعركة نفسها قاسية على الرومان ، معاونة لرجالهم .

وعندما صدر الامر ، تحرك الايريون والليبيون بأسلحتهم

في اتجاه الخندق المعد ؛ وهناك - تدثروا بمخاطف من جلد الماعز
بينما أوقفت الفيلة ورجالها على جانبي فرق الفرسان .
وقد عرف ما جرى بعد ذلك بمعركة نزيباً ..

كان على المشاة الرومان الذين تبعوا الفرسان الذين طاردوا
الفرسان النوميديين المراوغين أن يشقوا طريقهم في الظلام عدة
أميال، ولم يكن الجنود الرومان قد تذوقوا أى طعام قبل خروجهم
المفاجئ للقتال في ذلك البرد القارس . وفضلاً عن ذلك فإنهم
لم يستطيعوا معرفة الاتجاه الذي كانوا يسرون فيه فيما يشبه الظلام
وبعد أن قطعوا ميلاً آخر ، وجدوا المشاة الأفريقيين في انتظارهم
خلف حاجز قليل الارتفاع من الأرض . ومن خلف هذا الحاجز
بدأت الأحجار تتطاير من مقاليع البلياريين .

أما ما فعله المشاة الرومان فغير واضح تاريخياً؛ إلا أن هزيمتهم
بدأت في مكان آخر على الجناحين حينما تراجع الفرسان الرومان
منذ عرين أمام الفيلة المهاجمة ، وتفرقوا أيدي سباً بينما اندفع بعضهم
في خطوط زملائهم المشاة فأشاعوا فيها الفوضى والاضطراب ،
ولكن خطوط المشاة الرومان لم تنكسر، وإنما تقوسست إلى الوراء
فيما يشبه القوس .

وحينما انتصف الصباح زاد جوع القوات الرومانية فزاد ذلك
من اعيائها . وعلى أثر ذلك واجهت هذا القوات العدو من ثلاثة
جوانب وفي الوقت ذاته برز ماجو ورجاله الالف من مخبأهم
وألغوا بأنفسهم على مؤخرة الفرق الرومانية .

وفي تلك الاثناء راح ضباط فرق المشاة الرومانية يطالبون
الجنود بتشكيل الطوابير حتى يمكنهم كسر الحصار ..

وانتهت المعركة بعودة ١٠٠٠ جندي روماني إلى معسكراتهم
بينما فقد أكثر من نصف الجيش الروماني بين هائم على وجهه
في الثلج المتساقط وأسير وقتيل . وكان أول إجراء اتخذته هانيبال
مع أسرى حلفاء الرومان هو إطلاق سراحهم ليعودوا إلى ديارهم
ولكنه استبقى الأسرى الرومان رهائن للحصول على الفدية .

وبعث القنصل تيبريوس بتقرير غامض إلى مجلس شيوخ روما
قال فيه أن جيشه التحم مع القرطاجنيين في معركة ولكن سوء
الاحوال الجوية حال دون حصوله على النصر ..

وأجريت الانتخابات في يناير ، ولم ينتخب تيبريوس بعد أن
تبين أنه عارض نصيحة زميله الجريح القنصل بابلوس كورينيوس
وأقدم على القتال من تلقاء ذاته .

وعندما شفى بابايوس طلب الأذن له بتولى قيادة جيشه
في أسبانيا ، ولم يكن ذلك خوفاً منه من ملاقاته هانيبال المجنون ،
كما أصبح الرومان يطلقون على القائد القرطاجنى العظيم ، وإنما
لايمانه بأن غزو أسبانيا سوف ينهى متاعب الدولة الرومانية .
فوافق مجلس الشيوخ على رأيه .

معسكر الشتاء على نهر بو :

قضى القرطاجنيون شهرين من الشتاء فى منازل مسقوفة، وكانت
تلك أول راحة حقيقية يحصلون عليها فى زحفهم منذ وقعت
أبصارهم على جبال بربيز . . وقد وزع هانيبال على جنوده الغنائم
التي استولوا عليها .

وكان أهم ماظفر به هانيبال فى معركة تريبيا هو قيام تحالف
وثيق بينه وبين الغال ؛ إذ جاءته جموع كبيرة منهم من جميع المدن
الواقعة على نهر بو ، كما جاء رؤساء قبائل ليجوريا المتوحشة من
الشاطئ الغربى ، فرحب هانيبال بهم ايما ترحيب وأقام لهم
الولائم الباذخة . .

وأقسم الجمع يمين الولاء لهانيبال . ولكنه قال لهم أن تحالفهم
يجب ألا يكون معه ، وإنما مع قرطاجنة ، ولو أنه تعهد بحماية
أراضيهم وعدم المساس بها .

ووافق رؤساء قبائل الغال على التعاون مع هانيبال للتحرر من الحكم الروماني واستعادة حرية بلادهم ، وطالبوه بالشروع فوراً في مهاجمة الرومان . ولكنه استعملهم ريثما ينتهى فصل الشتاء .

وهكذا استطاع هانيبال أن يضيف إلى جيشه ما بين ١٠٠٠٠ رجل ، ١٤٠٠٠ رجل من المقاتلين الأشداء ، بالإضافة إلى قاعدة جديدة في وادى نهر بو . وأصبحت حامية الرومان الموجودة في بلاسنتيا وكرمونا منعزلة عن إيطاليا .

ومع أنه كان من مصلحة هانيبال البقاء في بلاد الغال ، إلا أن البرد القارس في شمال إيطاليا فضلاً عن موت كثير من القبيلة بسبب البرد ، جعله يؤثر عدم الركون إلى الجمود والانتظار .

وقد ذاعت في تلك الأحياء قصص غريبة عن هانيبال نفسه فقيل أنه كان يحتفظ بعدد من الباروكات (الشعر المستعار) مختلفة الألوان ، وبمجموعات متنوعة من الثياب ، كان يتنكر فيها كلما أراد التجول للاستطلاع أو الدراسة . وهناك من قال أنه كان يفعل ذلك خوفاً من الاغتيال .

وأثناء بقائه على نهر البو في شهر مارس ذاك ، جاءت أنباء

مقلقة ، حملها الجواسيس فقد أبانوه إن هناك شائعات تقول أن جيشاً رومانياً كبيراً نزل في أسبانيا . .

وكان هانيبال يعلم أن الرومان لن يستسلموا للهزيمة . وأنهم لا ريب بسبيل تعبئة جيوش جرارة للقضاء عليه . ولعل هانيبال نطق بقوله المأثور : إذا حصات على نصر فحتى أعداؤك يقفون إلى جوارك ؛ أما إذا حاقت بك الهزيمة فحتى أصدقاؤك يتخلون عنك . .

ولهذا سار هانيبال جنوباً ومعه قوات الغال لملاقاة جيوش روما وقد كلفه هذا الزحف المبكر قبل انتهاء فصل الصيف ثمناً غالياً . .

اجتياز المستنقعات :

تسير سلسلة جبال البين بانحراف عبر شبه الجزيرة الإيطالية ، ومن الساحل ، فوق جنوه ، تنحرف هذه الجبال إلى الشرق في جنوب شبه الجزيرة حتى تلامس الشاطئ . الآخر تقريباً من البحر الأدرياتيكي ؛ وتسمى "الوديان الضيقة معار خلال هذه الجبال التي تستمر في سيرها متماسكة حتى طرف إيطاليا . .

واقدر كان في استطاعة القرطاجنيين أن يسلكوا أطول وأسهل طريق إلى روما بالسير بمحاذاة سلسلة الجبال وعبروها على مقربة من روما ولكنهم لم يفعلوا ذلك وإنما مضوا إلى الجنوب عبر سلسلة الجبال . .

وهكذا تعرض جيش هانيبال لمحنة شبيهة بمحنة اجتياز جبال الألب . وكان أول وادى دخله الجيش يؤدي إلى قمة عالية غطتها الثلوج وهطلت عليها أمطار حالت دون استمرار الجيش في تقدمه فاضطر إلى التراجع وعبر الجبال من نقطة أخرى ، فاستطاع هذه المرة أن يصل إلى المنحدرات الغربية ، ولكنه وجد أمامه مستنقعات كثيرة شاسعة .

ولم يتوقف هانيبال ريثما يعثر على طريق جاف وإنما أمر جنوده باجتياز هذه المستنقعات وكانت غاطة كبيرة كلفتهم ثمناً باهظاً . . فقد أصيب كثيرون من جنوده بالمalaria ، كما أصيب بها هانيبال نفسه . وماتت الفيلة . .

وعندما تجاوز الجيش منطقة المستنقعات إلى واد فسيح أطلق القرطاجنيون عليه اسم « وادى الضوء » ، كان الأعياء قد بلغ من رجاله مبلغاً عظيماً . .

وأعان أن هانيبال يعاني من صرع خطير ، وأن عصب إحدى عينيّه قد مات ولهذا فقدت هذه العين قوة إبصارها .

وعندما شفى هانيبال من حمى الملاريا عاد إلى امتطاء صهوة جواده وقيادة الجيش وسار القرطاجنيون إلى نهر آرنو فلما بلغوه توقفوا في انتظار الجوسيس . .

وجاء هؤلاء ليقولوا لهانيبال أن الوديان الموجودة أمام جيشه تصلح لرعى جياده ، كما أن يحقوها محاصيل وفيرة . أما سكانها فليسوا من المحاربين أو الراغبين في الحرب ، إلا أنه يوجد ، عند التلال الغربية ، على مبعدة ستة أميال تقريباً ، جيش روماني يترقب وصول جيش هانيبال . .

وزاد هانيبال من سرعة طوابيره ، ومضى جنوباً لير بالرومان عند ملتقى التلال وكان هذا الطريق يؤدي إلى روما .

ومرة أخرى ، لم يجد القرطاجنيون في أراضي اتروسكان القديمة ما كانوا يأملون فيه .

الفصل الثالث

من ترأسيمينو إلى كاناي

«لم آت لأحاربكم»

إن الأمم لا تموت كالإنسان في لحظة واحدة ، لأن لها لغتها ، وطريقة أدائها للأشياء ، ودينها ، وفوق كل شيء غايتها التي تدفعها قدماً إلى الامام . ومن ثم فإنها - حتى إذا قهرها غيرها - لا تندثر إلا إذا فقدت الدواعي السالفة فقداناً تاماً .

كانت أمة أتروسكان القوية واسعة الخيال قد اختفت من عالم الوجود قبل مجيء هانيبال بوقت غير طويل ، وسادت اللغة اللاتينية سهولها وأصبحت مدنها خاضعة للقوانين اللاتينية

ولكن حضارتها لم تمت إذ اقتبس الرومان الكثير منها كبناء الكبارى والخزانات المائية وغيرها . بل إن تنظيم الفرق الرومانية المحاربة كان مطابقاً لما كانت عليه فرق الأتروسكانيين

ومن ثم فلاريب في أن هانيبال ما كاد يدخل أول مدينته
من مدن الاتروسكانيني حتى لاحظ علامات قاطعة في الحمامات
والمسارح على الثقافة التي غابت عن عينييه منذ ترك قصور ايبيريا ،
ومع ذلك فإنه لم يقابل بالترحاب من الموظفين القلائل الذين كانوا
في انتظار قدومه برغم أنه قال لهم : إني لم آت لأشن حرباً عليكم
لأن هدي هو القضاء على السلطة الرومانية ، وتحريركم من هذه
السلطة . فأجابوه بكلمات مطابقة باللغة اللاتينية ، وبعثوا بتقرير
إلى روما قالوا فيه أن جيش الغزاة لا يتكون من أفريقيين فقط
ولنما يضم جنوداً ينتمون إلى دول كثيرة جداً

وكان الاتروسكانيون أول شعب لم يقاوم هانيبال أو يحفل به
أو ينضم إليه . .

وأدرك هانيبال من فوره أنه لا يستطيع الثقة بهذا الشعب
أو الاعتماد عليه ، وأنه إذا أراد النجاح فإن عليه أن يضم إلى جانبه
أكبر عدد مستطاع من حلفاء روما .

وعندما مر هانيبال بجيشه على معسكر الأعداء في التلال دفع
بفرسانه عبر الوادي لينهبوه ويحرقوا القرى دون الاشتباك مع
العدو في أية معركة ، وبذلك أمكن الحصول على بعض الموزن .

كان من الواضح أن القرطاجنيين يتحركون نحو روما ، وأن هانيبال لا يريد إضاعة أية لحظة في مناوشات لا طائل تحتها ، ومن ثم فحينما جاءه جوابايسه ليقولوا له إن القنصل الجديد جايوس فلامينيوس يحشد جيشاً كبيراً صاح فيهم : وماذا يهمني من معرفة الأرقام ؟ يكفي أن أعلم ماذا يدور في خلد فلامينيوس ،



كان جايوس فلامينيوس رجلاً ممتازاً ، ولكنه كان مكروهاً من رؤساء الأسر الرومانية الكبرى ، لأنه تبني قانوناً للإصلاح الزراعى ضد رغبة مجلس الشيوخ ، وعندما أصبح قنصلاً فى عام ٢٢٣ لم يكن له جيش يخوض به المعارك ، وفى عام ٢١٧ انتخبه الشعب ليحل محل سمبرونيوس التمس ، وبذلك تولى قيادة جيش . وبادر بالذهاب شمالاً - ضد إرادة مجلس الشيوخ - لينضم إلى قواد الميدان .

ورغم كراهية الأسر الرومانية الكبيرة له كان فلامينيوس رجلاً قوى الإرادة ، كفئاً ، وكانت نقيصته الوحيدة أنه شديد المغالاة فى الثقة بنفسه ..

وقرر أن يتخلى عن إقليم بو فى الوقت الحاضر ، وانتظار

هانيبال على مشارف الأرض الرومانية ، ولكن مجلس الشيوخ رأى في ذلك إذلالاً لكرامة روما . ولما كان الرومان جيشان يزحفان نحو هانيبال ، فقد ذهب فلامينيوس إلى غرب جبال أبنين ، بينما انتظر سرفليوس بجيشه شرقاً عند ريميني . وعندما اكتشف أن هانيبال مر بمعسكره في الوادي لم يبادر فلامينيوس بالتحاق به ، لأنه أيقن أن هناك خدعة وإنما بعث بنصيحة عاجلة إلى سرفليوس لينطلق غرباً بأقصى سرعة ، وعندما سمع أن سرفليوس في طريقه نزل فلامينيوس بجيشه من فوق النلال ليقتل أثر القرطاجنيين مستعيناً في معرفة هذا الطريق بالقرى التي أحرقها جيش هانيبال في زحفه . .

وانطلق فلامينيوس بجيشه حتى بلغ كورتونا نحو بحيرة تراسيمينو ، وكان يعتقد أن هانيبال لن يلبث أن يعبر طريق فلامينيوس الذي يسرع فيه سرفليوس في مدى يومين أو ثلاثة أيام وبذلك يقع بين فكي الكماشة . ولذلك أسرع فلامينيوس في زحفه

ولكن فلامينيوس لم يكن يدري شيئاً عن أحابيل هانيبال .. فقد استبقى قوات المناوشة النوميدية في مؤخرة الجيش

القرطاجنى بحيث تكاد داوريات الرومان المتقدمة أن تراها ، وكانت هذه القوات تعود إلى المعسكر ليلاً للتعمية . .

وكان هانيبال يحرص على استكشاف المنطقة ودراستها بنفسه وبعد أن حصل هانيبال على جميع المعلومات التي أرادها ترك شاطئ بحيرة تراسيمينو وعاد إلى المعسكر . وقبل أن ينتهي ليل يونيو القصير كان الجزء الأكبر من الجيش القرطاجنى قد بدأ زحفه وانثنى يساراً إلى التلال العائمة على جانب البحيرة واختفى في ضباب الصباح المبكر

واستمرت فرقة من حملة الرماح الأفريقيين المكشوفين تسير في الطريق حول البحيرة حينما ظل النوميديون يتسكعون في المؤخرة . وكان ذلك في اليوم العشرين من شهر يونيو



فإذا كان صباح يوم ٢١ يونيو استأنف جيش فلامينوس ، وكان عدده . . . ٤٠٠٠ مقاتل سيره من معسكرة عند طرف الوادى . وكان جيشاً حسن التنظيم والتسلح . وكالعادة سبقت الفرقة المتقدمة الجيش مقتفية أثر الفرسان القرطاجنيين على طريق البحيرة وجاءت بقية الجيش خلف هذه الفرقة وعلى رأسها القنصل نفسه

وقال مساعد والقنصل أن جيشهم لن يلبث أن يقابل جيش
القتل الثاني عند طريق فلامينيو بعد يوم ونصف على الأكثر..
استمر الظلام منتشراً بعد موعد شروق الشمس بساعة ،
ونخيم ضباب كثيف على البحيرة فراح الطابور يتحسس طريقه
في الظلام ، وحدث بعض الهرج عندما اندفع جناحا الفرسان
في أثر المشاة بسبب ضيق الطريق ، ولكن المشاة ظلوا محتفظين
بتماسكهم ونظامهم ، ومع أن الضباب بدأ ينقشع إلا أنه كان
لا يزال يحجب الجانب الأيمن من البحيرة عن الأنظار

وانبعث زئير مخيف لم يستطع الجيش الروماني أن يتبين
مصدره ، إلا أن جنوده المحنكين أدركوا أن هجوماً شن عليهم
وإن لم يستطيعوا تمييز المهاجمين نظراً لكثافة الضباب

وبدأت القذائف تتوالى كالسيل على جنود الجيش الروماني ،
وأخذ هؤلاء يتساقطون كأوراق الخريف وهم يثبون ويتأوهون
ويصرخون ويولولون

واندفع الفرسان بين صفوف المشاة ، ونظراً لضيق الطريق
ساد الهرج والمرج ، وبعد لحظات استطاع جنود الجيش الروماني
أن يميزوا أشباحاً تنقض عليهم من فوق التلال وتعمل فيهم قتلاً

وفتكا حتى خيل إليهم أن الأرض زلزات زلزالها . .
وهكذا أفسد هذا الهجوم الصائق المفاجيء نظام الجيش
الرومانى وأعجزه عن القتال

وراح هانيبال يلقى بفرقه الواحدة تلو الأخرى فى هذا الهجوم
المفاجيء بعد أن احتفظ بها محتبئة فوق التلال طوال الشطر
الآخر من الليل . .

وأطبق الفرسان القرطاجنيون على مؤخرة طراوير الرومان ،
وهكذا انحصر هذا الجيش فيما يشبه القوس ، فالبحيرة أمامه
والعدو على جوانبه وفى مؤخرته . فساد الفزع بين جنود روما
وإن حرصوا على التمسك بنظامهم ، واضطر كثيرون منهم فى النهاية
إلى إلقاء أنفسهم فى البحيرة ، ولكن القرطاجنيين غاصوا الماء
بجيادهم وأجهزوا عليهم .

وانتهت معركة بحيرة تراسينيمو فى الساعة العاشرة صباحاً ،
ولم يفلت من هذه المجزرة الهائلة غير مرتزة الرومان التى كانت
قد سبقت الجيش لاستكشاف الطريق

وهكذا قضى على هذا على هذا الجيش قضاءً مبرماً .

هانيبال يستدبر شرقاً :

حاولت الفرقة الرومانية التي أفلتت من الموت أن تهرب ،
ولكن الفرسان القرطاجنيين استطاعوا اللحاق بها ومحاصرتها ،
وهنا حدث شيء غير متوقع فقد استسلمت الفرقة كلها بلا قتال ،
وهكذا أخذ القرطاجنيون ٦٠٠٠ جندي روماني أسرى بلا قتال ..

والواقع أن معركة تراسيمينو لم يسبق لها مثيل في تاريخ
إيطاليا . فقد أسر القرطاجنيون ١٥٠٠٠ من جنود الجيش
الروماني ، وأبادوا الباقين على بكرة أبيهم ، بينما لم تزد خسائر
القرطاجنيين على ٢٥٠٠ جندي بين قتيل وجريح

ولم يعثر هانيبال على فلامينيوس حياً أو ميتاً ، وإن كان
الأنسو بريون ادعوا أنهم قتلوه

وجريا على سياسته التقليدية أطلق هانيبال سراح الأسرى غير
الرومانيين بعد أن أحسن معاملتهم بينما سام الرومان خسف العذاب
ثم باعهم رقيقاً للتجار اليونانيين .

وقبل أن يستأنف الجيش القرطاجني زحفه ، عقد مؤتمرا

لقواد جيشه ، واستقر رأى الأغلبية على ضرورة منح الجيش قسماً
من الراحة في مكان آخر .

ورؤى أن يمضى الجيش شرقاً نحو بروجيا ، بيد أنه ما كاد
الجيش القرطاجيين يشرع في السير ، ويصل إلى طريق فالامنيو حتى
التقى بأربعة آلاف فارس روماني كانوا في طليعة جيش القنصل
الثاني سرفيليموس قادمين من ريمين . وقد بهت الرومان . للمفاجأة
وبالانحصار حينما أحاط القرطاجيون بهم واستطاعوا أن يأسروا
ألفين منهم أحياء .

وفي نفس اليوم تجتمعت جموع كبيرة حول مجلس الشيوخ
الروماني بعد أن سرت شائعات عن الكارثة التي حلت بالجيش .
وأخيراً خرج إليهم بومبوينوس ماثو . وأعلن التصريح
الخطير التالي :

- لقد حلت بنا كارثة مروعة في معركة رهيبية قتل فيها أحد
القنصلين . .

انتخاب ديكتاتور :

قال بابليوس فيما بعد : « إن الرومان لا يكونون مصدر خطر
سواء كأفراد أو كشعب إلا حينما يهددهم خطر داهم ، .

وقد صدق بابليوس فيما قال : فقد كانت هزيمة بحيرة تراسيمينو نذيراً لشعب روما بالخطر الإفريقي الذي أصبح يقرع أبوابهم ويهددهم بالفناء . ولكن الرومان لم يفقدوا رباطة جأشهم واعتبروا موقعة البحيرة « يوماً آخر أسود » من أيام الهزيمة ؛ وعندما جاءت الانباء بعد المعركة تفيد بأن فرسان سرفيليموس قد أيدوا إزداد التوتر في روما ، وخرجت النساء إلى الشوارع تنوح وتبكي ، وإزدادت الشائعات أنتشاراً وكانت أهمها شائعة تقول بأن مدينة روما ستخلى من سكانها بمجرد اقتراب القرطاجنيين منها .

وللمرة الأولى اتفقت كلمة المجالس الشعبية مع مجلس الشيوخ فقد شعر الجميع بأن القنصلين اساءوا التصرف ، وإن هانيبال رجل خطير لا يمكن أن يقف في وجهه غير ديكتاتور يتولى الدفاع عن المدينة بشرط أن ينتخبه الشعب ويمنحه جميع السلطات .

وأخيراً أستقر الرأي على تعيين عميد أسرة فابيان فابيوس فريركوزاس الذي سبق إن حذر مجلس الشيوخ من هانيبال ، ديكتاتوراً مطلقاً .

وكان فريوكوزاس كهل يجنح إلى الصمت ، وقد اكتسب شهرة « المعوق » بين الجميع ، فضلاً عن الصبر وقوة احتمال المكاره

وعلى أثر تعيين فريوكوزاس ، حثه مجلس الشيوخ على تدعيم اسوار المدينة والدفاع عن كباريها ، ولكن فابيوس الكهل لم يفعل ذلك ؛ وإنما طالب الشعب ببذل جهد مضاعف ، وأعلن التعبئة العامة ، وفرض ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الحرب . كما طالب حلفاء روما بتقديم مزيد من الرجال . . . وعندما سافر إلى الشمال للحاق بفلول جيش سرفيليوس ، أمر بأحراق جميع المحاصيل وقتل الماشية في جميع القرى الواقعة على طريق زحف القرطاجنيين حتى يحرمهم منها .

وسرعان ما سمع الديكناتور الروماني أنباء غريبة ، فقد قيل له أن جيش قرطاجنة يعيث في الأرض فساداً ويتركها خراباً أينما ذهب ؛ وأنه يأسر كثيرين من سكان المدن ممن يخشى سطوتهم ويبيد الشبان ممن هم في سن الخدمة العسكرية (والواقع أن هانيبال لجأ إلى هذه السياسة الارهابية لأول مرة لاثارة فزع هذه المنطقة المتاخمة لروما) .

وسرت في روما موجة جديدة من الكراهية نحو هانيبال . . . وأراد فابيوس أن يزيد من حدة هذه الكراهية فقال للزعماء : « لماذا

تنطقون باسم هانيبال وأنتم خائفون ؟ إنه رجل واحد فقط ، بعيد جداً عن قرطاجنة .. لقد فقدتلى جيشه منذ أن عبر جبال الألب ولا مفر له من الحصول على طعام جيشه يوماً بيوم ، وكلما مر يوم إزداد جيشه ضعفاً بينما نزداد نحن قوة ، .

ومع أن الحقائق التي ذكرها فاييرس لم تكن دقيقة .. ولعله كان يعرف ذلك .. إلا أن منطقه كان صحيحاً ، لأن الوقت كان في جانب الرومان ، وقد صمم فاييرس على كسب الوقت بأي ثمن . لقد حيرت أعمال هانيبال زعماء مجلس الشيوخ روما . فراحوا يتساءلون عما يدفع هذا القائد القرطاجنى الظافر إلى الابتعاد عن روما نحو الشاطئ الشرقى حيث الأرض أكثر جدياً بجردة من الموانئ ، وحيث المدن قليلة ، والشعوب تكاد تكون خارجة عن نطاق سلطة روما .

ولم يحاول فاييرس الاجابة على اسئلة أعضاء مجلس الشيوخ . وبعد أن ترك معظم ضباطه المحنكين على نهر التيبر لتدريب جيش جرار جديد ، قاد جيشه شرقاً لاعتراض طريق هانيبال ومراقبة تحركاته .

فابيوس يتحرك ضد هانيبال :

استرد القرطاجنيون الاراضى المرتفعة على البحر الادرياتيكي في ذلك الصيف ؛ وكان أهلها البيزنطيون أبعد الناس إدراكا عما كان يحدث غربا ، ولهذا استسلموا لمصير لم يكن في استطاعتهم أن يدفعوه أو يتجنبوه . . ولما كان القرطاجنيون قد قطعوا أكثر من ١٨٠٠ ميل في الخمسة عشر شهرا الأخيرة فقد سرهم أن يضربوا معسكراتهم ليستريحوا ويضمّدوا جراح المصابين منهم ، ويعيدوا تنظيم صفوفهم . .

وبدأ هانيبال يعيد تنظيم جيشه ، ففتح رجاله ثيابا رومانية جديدة بدلا من الثياب القديمة التي بليت ، أما الاسلحة التي استولى عليها من الرومان فتمدّ باعها للتجار اليونانيين ، ووهب الدروع للغال الذين كانوا يجيدون استخدام الاسلحة الرومانية .

وحينما انتهى هانيبال من تزويد جنوده بالاسلحة ، شرع في تدريبهم على التكتيكات الجديدة بعد أن اقتبس كثيرا من تكتيك الرومان ، ولهذا لم يعد يكثر من الاعتماد على نصيحة ضباطه المخضرمين. فشكل فرسانه في وحدات يتراوح عدد كل وحدة منها

بين ٥٠٠ و ١٥٠ فارس مزودين بأسلحة ثقيلة . أما النوميديون فقد وضعهم تحت قيادة ماهر بال ، وبذلك انتزعه من قيادة الفرق الأفريقية الهامة .

وقبل أن ينتهي هانيبال من تدريب جيشه ، زحف جنوباً على طول الساحل في مراحل سهلة . وبدأ جيش فابيوس على خط الأفق ، وكان يراقب القرطاجنيين عن كثب ، ويربض فوق حواف مرتفعة . وبرغم حدوث مناوشات بسيطة بين الرومان والقرطاجنيين ، إلا أن الأوائل حرصوا على ألا ينزلوا إلى الوادي المكشوف ، ولم يبدوا أية رغبة في الاشتباك مع العدو في قتال واسع النطاق .

وبعد انقضاء عدة أيام في المراقبة ، قال هانيبال لجأه : لقد كسبنا الحرب لأن روح الرومان الحربية منهارة .

ولعله قصد بذلك رفع روح ضباطه المعنوية ، ولو أنه من المحقق أن هانيبال أحس فعلاً بانحيار روح الرومان العسكرية ، ووجود تغيير في روح القيادة التي تواجهه . .

وزحف هانيبال جنوباً إلى السهل المرتفع حول تقاطع الطرق عند لوسيرا ، وترك جياده ترعى في الحقول المسطحة غير عابئة

بالعدو . وراح فايبوس يراقب القرطاجنيين من فوق مرتفع بعيد ،
وإذ لاحظ هانيبال أن غريمه لا يحرك ساكناً ، سمح لجنوده بأن
ينهبوا ضباع نبلاء الرومان بغير أن يمسوا القرويين بأذى وقد أدى
هذا التسامح إلى انضمام عدد كبير من الصيادين والرعاة الذين
يتضورون جوعاً في هذه المنطقة إلى جيش هانيبال .

ونصب القرطاجنيون فخاخاً كثيرة لفايبوس ، ولكن هذا
حرص على التزام الجود والمضى في المراقبة . إذ كان يعلم أن كل
أسبوع ينقضي يزيد من قوة تدريب الجنود الذين كانوا يعبأون
في روما .

أما هانيبال فعبر نهراً صغيراً هو نهر أوفيداس بالقرب من
قرية مشيدة بالحجر إسمها كاناي . وكان هانيبال يرمى إلى التعرف
على معالم المنطقة ، وفي الوقت ذاته كان يفعل شيئاً لم يفتن
الرومان إليه .

* * *

ليس من السهل معرفة سر الخطة التي رسمها القرطاجنيون لأن
هانيبال لم يسجل شيئاً عنها ، ومن ثم فإن كل ما يمكن معرفته عنها
لا يمكن أن يحىء إلا عن طريق التكهن . .

فقد طرأ تغيير كبير على موقف القرطاجنيين ، إذ ما كاد الصيف ينتصف حتى استطاع هانيبال أن يصل إلى سواحل البحر الادرياتيكي ويعيد اتصاله بالبحر وقرطاجنة . وكانت سفن صغيرة تتسلسل من أفريقيا وتروغ من الأساطيل الرومانية إلى شاطئ بيزنطة عديم الموانئ ، ويبدو أن هانيبال باع أسرى تراسيمينو لتجار الرقيق القادمين من الشرق في تلك الأثناء .. وبعث هانيبال أيضاً بمندوبين عنه إلى فيليب ملك مقدونيا عن طريق ساحل دلماسيا يدعوه للتحالف مع قرطاجنة ضد روما .

ويبدو أن ماجو ، شقيق هانيبال الصغير ، انضم في تلك الأثناء إلى أخيه هانيبال حينما كان جيش قرطاجنة معسكراً على الأدرياتيكي ، وقد أحضر ماجو معه أنباء من أسبانيا كان هانيبال ينتظرها على أحر من الجمر .. وتلك أن الأخوين بابليوس وسديو الأصلع أنزلا جنودهما هناك في شمال أبرو حيث قامت القبائل الأسبانية الشمالية بمقاومتهم بقوة السلاح . وراح هاسدروبال يراقب المتقاتلين وهو في قرطاجنة الجديدة ، بينما كانت الأساطيل المعادية تكتسح الشاطئ الأسباني ..

وأهم نبأ أحضره ماجو أن أسطولا حريباً خرج من قرطاجنة

بتألف من ٧٠ سفينة حربية وأنه اشتبك مع القوافل الرومانية
الرسلة إلى أسبانيا ، وغزا ساحل إيطاليا الغربي ؛ فأرسل الرومان
أسطولاً مؤلفاً من ١٢٠ قطعة حربية من قاعدتهم بصقلية - تحت
قيادة سرفيانيوس المشهور - لمحاصرة سردينيا وكورسيكا والبحث
عن الغزاة القرطاجنيين عند سواحل أفريقيا ..

وهكذا كانت الصورة التفصيلية غير مشجعة لهانيبال ، لأن
وجود الاخوين سديو عند نهر أبرو قطع طريق المواصلات الذي
كان يأمل أن يظل مفتوحاً مع أسبانيا ومع أن جيشه أى جيش
هانيبال ، لم يكن يبعد في ذلك الحين أكثر من ٥٠٠ ميل عن
قرطاجنة ، إلا أن الأساطيل الرومانية كانت تغلق هذا الطريق
في وجهه ..

وظلت هذه الصورة الكبيرة ماثلة في ذهن هانيبال وكانت
مصدراً لآمله وقلقه معاً . أنه لم يجر وراء الأوهام بالنسبة
لقرطاجنة ؛ ولكنه كان يعتقد أنه وإن كان تعدادها لا يزيد على
عشر الرومان ، إلا أن مواردها تضارع موارد روما حينما تعبأ
هذا المورد تعبئة كاملة . فإذا استطاعت قرطاجنة أن تحتفظ
بمناجم أسبانيا ، وأضافت إليها غابات كورسيكا وجنوب سردينيا

و ثراء صقلية فمن المحقق أن الميزان يميل في مصلحتها تماماً ..

وفي تلك الاثناء كان الجواسيس يروحون ويحيثون من قرطاجنة إلى سيراكيوز ، قلعة صقلية ، وإذ كان هو كارثالو رئيس الجواسيس قد انضم إلى هانيبال فقد وسع شبكة جواسيسه إلى روما ذاتها .

وقاد هانيبال جيشه غرباً نحو الحقول الخصيبة ومدن كيبانيا ذات الاسوار ، ولكنه - حينما فعل ذلك - لم يستدرج فايوس إلى النزول إليه والاشتباك معه في القتال ، وإنما سقط في الفخ الذي نصبه فايوس له .

جيش الثيران :

يسكاد جنوب إيطاليا بشبه وادي التيه إذ أنه يتألف من وديان ضيقة وأخاديد خداعة تتخللها مرتفعات جبالية ونادر أن توجد بها سهول تذكر ، ولهذا لاقت جيوش الحلفاء متاعباً كثيرة عند بداية نزولها في جنوب إيطاليا خلال الحرب العالمية الأخيرة .

إلا أن الجيش الروماني القديم وجد طريقه سهلاً نسبياً على طول الأرض المرتفعة ، على حين كان من العسير على القرطاجنيين

أن يصلوا إلى أى مكان على طول الوديان المنخفضة .

وراحت دوريات الاستكشاف القرطاجنية ترتاد الوادى الضيق ، وتستكشف الطريق ، بينما التزم الرومان جانب الجمود وظلوا يراقبونهم عن كثب من مواقعهم المرتفعة دون أن يبدو منهم ما يدل على أية رغبة فى الاشتباك فى القتال برغم الخراب والتدمير الذى كان القرطاجنيون يحدثونه فى المدن والقرى التى مروا بها .

وبعد ظهر أحد الأيام لاحت لفابيوس فرصة نصب فخ للقرطاجنيين ، فأرشد بعض ضباطه للعمل بعد أن أصدر اليهم التعليمات اللازمة لالتزام جانب الحذر ، وأرسل أجزاء من فرقتين قوامها حوالى ٤٠٠٠ رجل إلى مخرج الأخدود البعيد لإغلاقه . بينما هبطت القوة الرئيسية إلى مرتفع مريح من الأرض المشرقة على مدخل الأخدود ، وعسكرت هناك ، فإذا ما غربت الشمس كان القرطاجنيون قد حاصروا فى معبر الوادى .

عرف هانيبال هذا كله من داوريات الاستكشاف . ، فقرر القيام بحركة لا تخطر على بال أعدائه كان قد رآها فى جبال أسبانيا

فأمر رعاة قطعان حيواناته بأخذ حمار إلى ألف ثور إلى رأس الوادي،
وأن يشبثوا فوق قرونها مشاعل مطفأة وينتظروا هناك .

ثم أمر هانيبال بإطعام الجيش ، والنوم .

وحوال منتصف الليل انضم هانيبال إلى رعاة الماشية ومعه
قوة صغيرة من السكاك المدربين على القتال في السهول . واقتيدت
الثيران إلى الجانب شديد الانحدار من السهل وشرع الاسبانليون
الموجودون مع هانيبال في إشعال الشعلات المثبتة على قرون الثيران
ثم دفعوها في اتجاه العدو وهم يطلقون صرخات مرعبة .

وما كادت الثيران تتأجج حتى اندفعت الثيران كالمجنونة، ورأت
نقط المراقبة الرومانية الموجودة فوق القمة العاليه منظرأ عجيباً ..
مئات المشاعل تتحرك في كل مكان مختلفة بزئير وصيحات تصم
الأذان ..

وعندما تحرك الجيش الروماني من مكانه ليستطلع جلابة الأمر
لم يجد لجيش قرطاجنة أثراً .

كان جيش هانيبال قد تسلل من عمر سفلى إلى الامان .
وعندما أشرقت الشمس كانت مؤخرة الطابور القرطاجنى

نهر التيمّة التي هجرها الرومان وأرسل هانيبال فصائل قوية لإحضار الجنود الذين دبّروا خدعة الثيران وغرروا بالرومان .

ومن المدخل الأسفل ، كانت القوات الرومانية الأساسية تراقب منظر المشاعل بين اللال بنير أن تجرق على اتخاذ أي إجراء ، فقد رفض فابيوس أن يأمر جيشه بالعمل في ظلام الليل البهيم ، وعندما انكشفت الحيلة راح ضباطه يلومونه على جهوده .

وأثارت القصة استياء شديداً ضد فابيوس في روما . وعندما أوشك العام على الانتهاء استدعى فابيوس إلى روما لاستجوابه ، ولكنه أصدر أمرة إلى نائبه بالاحتياطك مطلقاً في قتال مع هانيبال .

السلام له في إيطاليا :

لم تبدأ معركة كاناي الكبرى في ذلك الفجر المشؤم يوم ٣ أغسطس سنة ٢١٦ ذلك لأن هذه المعركة بدأت منذ شهر في عقل هانيبال وفي الأحداث التي جرت في روما ودفعت بقوات لا تقاوم إلى كاناي .

كان مينوسيوس روفاس نائب القنصل فابيوس شاباً مندفعاً ينتمي إلى الفريق الذي يعارض فابيوس . وقد شاركة ضباط الجيش

النفور من السياسة التي يتبعها الديكتاتور الكهل ، ولهذا فليس هناك ما يستحق العجب إذا كان مينوسيوس قد قبل الفرصة التي عرضها هانيبال للاشتراك في القتال .

فقد اتفق ان كان أحد جناحي الرومان من الفرسان يطارد الماشية القرطاجنية التي كانت ترعى في الحقول ، ومالبت هذا الجناح أن اصطدم بخط نقط القرطاجنيين فوق مرتفع من الأرض . . واشتبك الرومان في معركة حامية مع القرطاجنيين ، وعتدما خف مينوسيوس لتأييد فرسانه ومعه قوات جديدة . كاد القرطاجنيون يتراجعون عن خطهم . وفي اليوم التالي تبين للرومان أن القرطاجنيين هجروا التل ، فقد تقهر هانيبال كعاداته .

وليس من شك في أن مينوسيوس بالغ في وصف ما حدث فأثار ذلك فرحا عظيما في شوارع روما التي لم تشهد حتى ذلك الحين سوى مناظر النواح والحزن . واستنتج الشعب أن فاييوس هو سبب النكبة كلها بما عهد عنه من بطء واضاعة للفرص .

واستدعى مينوسيوس إلى روما لأخذ رأيه ، وهناك رأى تكريمه ، فعين ديكتاتورا ثانيا . وهي حالة لم يسبق لها مثيل في التاريخ . ولم يعترض فاييوس على ذلك كعاداته وكل ما فعله هو أن

سأل شريكه إن كان يريد مشاركته في قيادة الجيش الروماني أو يريد الاستئثار بقيادة نصفه ، فاختار مينوسيوس العرض الثاني .
وعندما عاد الديكتاتوران إلى الميدان ، تلبعت قواتهما جيش هانيبال إلى ركن من سامينوم حيث قام مينوسيوس بالهجوم من جديد ، وكاد القرطاجيون أن يفتكوا بفرقه لولا أن بادر فايوس بانقاذها .

ومرة أخرى انسحب هانيبال . . . وانتظر .

وعاد الديكتاتوران من جديد إلى معسكريهما فوق التل . .
ومر الوقت سريعاً ، وحن وقت انتخاب قنصلين جديدين . .

أما تصرفات هانيبال في تلك الفترة ، فكانت أشبه بالالغاز والأحاجي . . فبينما كان فايوس يصرح في روما بأنه لا سلام لهانيبال في إيطاليا ، كان هانيبال يدعم جيشه بمجندين جدد من القطاعات التي تكره روما ، فاستطاع أن يرفع عدد رجال جيشه من ٢٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ جندي . على حين راح الرومان يعبثون مزيداً من الجنود .

ومهما يكن من أمر ما كان هانيبال يهزمه ، فإنه حرص على

المحافظة على تماسك جيشه وعدم المغامرة به في معركة فاصلة . .

وفي تلك الأثناء لمع نجم خطيب روماني اسمه ترينيتوس فارو ،
وقد استطاع هذا الرجل أن يحظى باهتمام الجماهير حينما صرح
بأن القادة من أسرة فايان يتعمدون إطالة الحرب واستنزاف
موارد البلاد من الرجال والمال . وقد أدى ذلك إلى انتخاب
فارو لمنصب القنصل الشعبي .

وتأخر انتخاب قنصل النبلاء لانشقاق أعضاء مجلس الشيوخ
على بعضهم . وما زاد موقف فايوس سوءاً أن الأنباء وردت
بأن هانيبال ينهب جميع المحاصيل الموجودة في منطقة القتال ،
ولكنه ترك مخزناً تملكه أسرة فايان بغير أن يمسسه .

وانجحت معركة انتخاب قنصل النبلاء عن اختيار اميليوس
بولاس قنصلاً وكان كهلاً ذا ماضٍ لامع .

وكان بولاس واحداً من المبعوثين الخمسة الذين أوفدوا إلى
قرطاجنة لإعلان مجلسها بأن روما ستعان الحرب عايتها . ولهذا
كان من الملائم أن يعهد إليه بإيهاء هذه الحرب . وهناك قصة
تقول بأن فايوس حذر اميليوس بقوله : « سوف تجد أن فارو
عدو أخطر من هانيبال » .

والواقع أن روحاً شبيهه بالروح الصليبية اكتسحت روما
في صيف عام ٢١٦ ، فقد استقال أكثر من مائة عضو من مجلس
الشيوخ وانضموا إلى الجيش . بينما تطوع الآلاف من الطبقات
الدنيا طمعاً في نهب معسكر القرطاجنيين الغني .

وهكذا بلغ عدد جنود الجيش الروماني حوالى ٨٥٠٠٠ جندي
كان أكثر من نصفهم مجندين جدد . .

وأخيراً قرر مستشارو مجلس الشيوخ ضرورة الالتجاء إلى
خطة الهجوم بعد أن اطمأنوا إلى عاو تدريب الجنود وقوة تماسكهم ،
وكانوا يقولون أنه وإن كان الهجوم سيُسفر عن خسائر فادحة في
الأرواح إلا أن هانيبال لن يستطيع احتمال خسائر كبيرة
في جيشه .

وعهد إلى مينوسيوس بالقيادة العليا . .

وفي الوقت ذاته انضم بابليوس كوريناوس سبيو الذي ساعد
أباه الجريح في تربيته إلى الجيش ليثار لاييه من هانيبال . .

ووقع حادث تافه أدى إلى إشعال نار القتال . .

حدث أن استولى هانيبال على مخزن حبوب آخر في قرية

كاناي نصف المهدة بعيداً عن ساحل البحر الأدرياتيكي . فأثار ذلك حماس الجماهير وطالبته بوضع حد لهانيبال وجيشه .
وأصدر مجلس الشيوخ أمره لجميع القوات بالزحف والاتحاد ضد هانيبال .

وكانت التقارير الأولى تحمل بشائر طيبة ، فقد اكتسحت القوات الجديدة معسكر إحدى نقط القرطاجنيين واستولت على كميات كبيرة من الأدوات الفضية والجواهر ملقاة في خيام مهجورة ..

وكانت نيران الطهي لاتزال مشتعلة .. فاندفعت القوات الرومانية لمطاردة القرطاجنيين مخالمة بذلك تعليمات ضباطها ..

واتحد الجيشان الرومانيان بقيادة القنصلين الجديدين . واندفعا لمطاردة هانيبال وجيشه وتبين لها أن هانيبال ترك معسكره عند قدومهما وتقهر عبر نهر أوفيدس ..

وهناك ، في وادي كاناي المكشوف ظهرت بوادر معركة كبيرة على الألف .

وكان ذلك في اليوم الثالث من أغسطس ..

المرتفعات غير المنظورة :

وقف هانيبال بجواده فوق ربوة في التل الجاف ، وراح يتأمل الوادي الفسيح أمامه ، بينما أخذت الريح الساخنة تلفح وجهه ..

ولم يكن هذا الوادي يبعد عن بحر الادرياتيك بأكثر من ثلاثة أميال ، وكانت الفرق الرومانية تتحرك في صف طويل فتفصله عن البحر ، ولاحظ هانيبال أن المشاه يسرون في نظام بديع ، وأن الفرسان يسرون في أثرهم وهم مسلحون بالدروع طبعا لنظام تشكيل الجيش الروماني ..

وبعد أن لمعت في الأفق أشعة الصباح الاولى، بعث هانيبال بفرسانه الاشداء بقيادة هانو بن بوميلكار في اتجاه مدينة كاناي وظل القائد القرطاجني يتبع فرسانه النظر إلى أن بلغوا منحدر كاناي .

وبدأ هانيبال يصدر أوامر سريعة إلى مختلف الفرق ، فاندفع الرسل يحملون هذه الاوامر إلى قواد الفرق ...
وبقي الجيش القرطاجني في الانتظار بصبر ، بينما كانت جماهير الجنود الرومانيين تزحف نحوه ..

وجأة ، ارتفع زئير الرومان ايذاناً ببدء الهجوم ، وكان
القرطاجنيون في انتظارهم صامتين . وخيل في بادئ الامر أن
كتلة المهاجمين الرومانيين سوف تفتح صفوف القرطاجنيين .
وأصدر هانيبال أمراً . وفي التو ألقى خدمه ناراً مشتعلة
في الاعشاب الجافة ، فارتفع دخان كثيف حملته الريح إلى بعد
ميلين فرآه هانو الذي كان يترقب هذه الإشارة ..

كان القرطاجنيون يمتازون عن الرومان بأن قوادهم عرفوا
ميدان الحرب منذ بدأ النزاع بين القرطاجنيين والرومان ، على
حين أن قواد الرومان كانوا غرباء عن بعضهم .. فقد تولى
اميليوس المحنك قيادة جناح الفرسان اليمين . وتولى القنصل
السابق سرفيليوس قيادة قلب المشاة وتولى فارو ، وهو أقل
القواد دربة قيادة جناح الفرسان الايسر وهو أضعف جزء في
الجيش وهكذا لم يكن هناك قائد عام يتولى زمام الجيش كله
وقت المعركة ..

واندفع الخط الروماني القوى صوب الخط القرطاجني لأنه
لم يكن يعرف تكتيكاً غير ذلك .. كان في استطاعة هذا الطابور
أن يضرب بعنف ولكنه كان عاجزاً عن المناورة .

ولم ينتظر القرطاجنيون أطول من ذلك ، فقد أعاد هانيبال
تشكيل جيشه في وحدات جديدة ، وجعل قلب الجيش أضعف
نقطة فيه ، ولكنه أحاطه بمربعات قوية سلاح رجالها تسليحاً قوياً .
وكان كل مربع منها يحتل مرتفع بسيط في الوادي . وبذلك ظلت
بمناى عن المعركة عند بدايتها .

وعندما انتهت المعركة اضطر الغال والأسبانيون الذين كانوا
يشكلون قلب الجيش القرطاجنى إلى التراجع أمام هجمات قلب
الجيش الرومانى العنيفة . وعند تراجع قلب الجيش القرطاجنى
أخذ يتساق مرتفعاً من الأرض وبذلك أمكنه أن يشكل مع الجناحين
ما يشبه القوس .

والنقى قلب الجيش الرومانى نفسه يندفع بداخل القوس ،
وبعد ساعة كان الجيش الرومانى كاه تقريباً بداخل هذا القوس .
وبعد ساعة أخرى ، أصبح الرومان جميعاً بداخل القوس .

وفجأة أطلق جناح الجيش القرطاجنى رويدا رويدا على الجيش
الرومانى بغير أن يفتن إليهما أحد . .

ذلك أنه ما كاد هانو يبصر الدخان الذى سبقت الإشارة إليه
حتى اندفع بفرسانه نحو فرسان الجيش الرومانى الموجودين في

المؤخرة فحصرهم بينه وبين البحر .. وانقض رجاله بوحشية على
الرومان ، فسقط اميليوس على أثر اصابته بحجر ، ولم يمش
طويلا بعد ذلك ..

واكتسح أعصار هانو ورجاله فرسان الرومان ، واضطروهم
إلى التقهقر نحو ركن بين النهر والبحر . وهناك تفرق ماتبقى من
فرسان اميليوس وهاموا على وجوههم .

وهكذا نفذ هانو أول الأوامر التي صدرت إليه . وبعد أن جمع
شمل فرسانه من جديد ، مضى لتنفيذ الأمر الثاني . وكان أمرا غريباً
إذ كان عليه أن يحيط بالجناح الروماني الثاني خلف المشاة .

وعلى هذا الجناح كان النوميديون يشتبكون مع العدو في
مناوشات غريبة على مألوف عاداتهم . كانوا يهاجمون ، ثم يتراجعون
وتظاهر كثيرون من جنود هانيبال بالتسليم ، ولكنهم ما كادوا
يندمجون في صفوف فارو الروماني حتى أخرجوا أسلحة كانوا
يخبئونها وشنوا هجوما عنيفاً في قلب الفرق الرومانية .

ولجأ أنقضي ماجو بفرسانه على فرسان فارو من
الخلف . وليس من شك في أن المفاجأة شلت حركة الرومان
وبالخاص حينما ألغوا أنفسهم محاصرين بالنومبيين من الأمام

والفرسان من الخلف . وحاول فرسان الرومان التخلص من
الفتح بالوصول إلى الأرض المكشوفة ، فاضطرب نظامهم وفقد
فارو كل سيطرة عليهم .

فإذا كان الظاهر لم يبق فارس روماني واحد بين حافة كاناي
وجيش هانيبال . . أما فرق المشاة الرومانية فراحت تقاتل في
وحشية وجنون وقد أصبحت كتلة بشرية كثيفة .

وللمرة الثالثة عاد فرسان قرطاجنة إلى المعركة بعد أن قضوا
تماماً على فرسان الرومان . وأقبل هؤلاء الفرسان كالاعصار
واندفعوا إلى قلب الفرق الرومانية . وسرعان ما أطبق الفتح على
الرومان ، ولم يعد أمامهم مهرباً .

وراح الرومانيون يقاتلون بشجاعة ولكن بلا أمل ، فإذا
كان المساء كان معظمهم قد أريد فوق السهل الذي بدأوا منه
القتال . . وحاول ألغان منهم أن يلوذوا بخرائب كاناي فحاصروهم
فرسان ماهريال واضطروهم إلى تسليم أسلحتهم .

وعندما آذنت الشمس على المغيب ، راح هانيبال يتجول
بجواده في الوادي بعد أن تحقق النصر الكامل لجيشه .

وأمر هانيبال بنقل جرحى جيشه إلى خيام الأطباء . وحينما علم أن أحد القناصل الرومان قد قتل أمر بالبحث عن جثته والاحتفال بدفنها بما يليق بمركزه من احترام .

وفي تلك الليلة احتفل جيش قرطاجنة بذلك النصر احتفالا كبيرا فشرب الجنود وأكلوا حتى أصيبوا بالتخمة . .

وقال ماهر ال أثناء الوليمة : إن في استطاعتك أن تقيم مثل هذه الوليمة في قلب روما قبل انتضاء خمسة أيام يا هانيبال . . إن فرسانى سيذهبون إليها قبلك وسوف يعلم الرومان إنك جئت قبل أن يعلموا بأنك قادم .

فتأمله هانيبال ماياً وقال : من السهل أن تقول ذلك ، ولكن احتلال روما يستلزم وقتاً طويلاً

فصاح ماهر بال غاضباً : لقد منحتك الآلهة كثيراً من المواهب ولكنها لم تمنحك كل المواهب يا هانيبال . . فأنت تعرف كيف تذرع النصر ولكنك تجهل كيف تستغل هذا النصر ! ولم يجب هانيبال على ذلك . .

غداة كاناي :

وهكذا سحق جيش قرطاجنة الجيش الروماني الجرار بأعظم
خدعة حربية عرفها التاريخ . .

ولعل لجنة القواد الرومان على تنفيذ أوامر مجلس الشيوخ بسحق
هانيبال وجيشه ، واندفاعهم بتهور إلى الاشتباك في القتال كما
من أهم العوامل التي أدت إلى الحاق هذه الهزيمة الماحقة بالجيش
الروماني . .

فقد أيبده ٥٠٠ جندي روماني أو أكثر في معركة كاناي
وبلغ عدد الأسرى ٣٠٠٠ من المشاة و ١٥٠٠ من الفرسان ، وقتل
٢٩ شيخا من شيوخ القبائل و ٨٠ عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ .
وقد كشف صباح اليوم التالي عن فداحة الكارثة التي حلت
بالرومان ، إذ كانت أرض المعركة مغطاة بالآلاف والآلاف من جثث
الجنود الرومان . ومن حين لآخر كانت إحدى هذه الجثث تتحرك
والدماء تنزف منها .

أما خسائر القرطاجنيين فبلغت ٥٧١ جنديا بين قتيل وجريح .



وما كادت أنباء الفاجعة تصل إلى روما في شكل شائعات
أول الأمر ، ثم في شكل حقائق بعد ذلك حتى ساد المدينة المرح
والمرج ، وبدأت جموع النساء والأطفال والكهول تتجمع عند
بوابات المدينة والمعابد في انتظار الأنباء الرسمية .

ونظرا لأن عدد الموظفين الرسميين الذين ظلوا في المدينة كان
قليلًا ، لأن معظمهم انضم إلى الجيش المقاتل ، فقد بادر الديكتاتور
السابق بتولي السلطة . وعين اثنين من البريتور لمساعدته في تصريف
شئون المدينة . ثم بادر فاوفا ورسلا إلى الجنوب والشرق بحثا عن
ضباط الجيش ومعرفة حقيقة الشائعات التي وصلت إلى المدينة .

وعاد الرسل الأول بأنباء لا تكاد تصدق . قالوا إنهم لم يعثروا
على أى معسكر روماني ، ولم يجدوا قيادة رومانية ، ولا جيشاً
رومانياً . .

وبرغم هذه الأنباء الرهيبة ، فقد شرع فاييوس في العمل
بلا أبطاء . وكان أول إجراء أتخذه هو السيطرة على حالة الفرع
التي سادت المدينة وإعادة النظام إليها . وعين حراسات قوية على
أبواب المدينة لمنع أى شخص من مغادرتها .

واذاع فاييوس أسماء قتلى معركة كاناي ، فأقيم في كل بيت مأتم

وراحت النساء تتدافع الى المعابد ، وينظفن درجات المذبح بشغورهن
وهن يولولن على من فقدن .

وبدأ الخوف يحل محل الاضطراب في نفوس الدهماء . وتركزت
كراهيتهم كلها في رجل واحد ؛ هانيبال . وراحوا يتساملون . الى
أين سيذهب . ؟ ولأول مرة سرت شائعة تقولى : إن هانيبال
على أبواب روما .

ولكن هانيبال لم يزحف على روما :
فلساذا ؟ .

لأن ١٧٠٠٠ جندي من الرومان الذين فروا من المعركة كانوا
له بالمرصاد خارج روما ، كما كانت بعض الحاميات الرومانية لا تزال
تحتل مدنا استراتيجية هامة ، وأهم من ذلك أن القوات الرومانية
كانت لا تزال تسيطر على نهريو وقاعدة صقلية بينما كانت جيوش
الاخوين سييو تعمل في إسبانيا حيث تسيطر أساطيل الرومان
على البحر . .

أما عن حصار روما ، فرأى هانيبال استحالة إجرائه لعدم
وجود المهندسين المدربين وأدوات الحصار معه ، وأكثر من هذا
لأن قيامه بأي هجوم على روما معناه الدخول إلى أرض العدو وهو
عمل غير مأمون العاقبة .

ولم يغيب عن هانيبال أن جيشه أصبح في حالة من الاعياء
لا تمكنه من استئناف الزحف على روما ذاتها . .

ولهذا لم يستجب لدعوة بعض قواده المتحمسين بالزحف
على روما . .

وبقي هانيبال بجيشه على نهر أودينوس .

كارثالو يذهب إلى روما :

كان معسكر القرطاجنيين يشرف على البحر الادرياتيكي حيث
ندر أن تظهر هناك سفن كبيرة . . فبعد شروق شمس اليوم الرابع
من أغسطس ، خرج من جون صغير زورقان كبيران ، وانطلقا
جنوبا لحمل أنباء معركة كاناي إلى سيراكيوز ومنها إلى قرطاجنة ،
وفي الوقت ذاته ذهب رسل إلى الشمال سالكين الطريق الساحلي
غير المطرق حاملين رسائل إلى رؤساء قبائل البوي والانسور
مؤداهما أن آخر حازر قد حطم ، وآخر جيش قد نكل به وأن
الطريق الآن معبد لثورة شعوب إيطاليا .

وعلى نهر أودينوس قضى القرطاجنيون صباح يوم ٤ أغسطس
في جمع النفائس والغنائم من ميدان المعركة . . وأمر هانيبال بحفر

خندق لحصر الجنود الذين فروا بينه وبين النهر ، وأدى ذلك إلى استسلام ٧٠٠٠ جندي روماني آخرين بعد أن وعدهم هانيبال بإطلاق سراحهم بمجرد دفع الفدية . . . وعبر النهر دارت مناوشة شديدة بين جنود معسكرات الرومان التي تحتوي على مهمات ومؤون الجيش الروماني ، ولكن هذه المناوشات لم تلبث أن انتهت باستسلام ٨٠٠٠ جندي روماني منهوكي القوى .

وقد تحدث هانيبال إلى الأسرى بلاهة لا تشف عن أية خصومة فقال : قد يدور بخلدكم أني أقوم بحرب إبادة ولكن هذا الظن خاطيء . فما سحيت إلى القتال إلا لوضع حد لسيطرة روما ورغبة مجلس شيوخها في استعباد الشعوب من قرطاجنة الجديدة إلى صقلية ولقد عقدت العزم على أن أحقق هذا الهدف . أما أنتم فقد قاتلتم ببسالة نادرة وبترف ولسوف يطلق سراحكم بمجرد دفع فديتكم ولقد أردت أن تكونوا على ما أقول شهود . .

وحدد هانيبال فدية . . . دينار للفارس و . . . ٣٠٠ للبيادق و . . . ١٠٠ للرقيق . أما الجنود الذين جندوا من مناطق حلفاء روما فأطلق هانيبال سراحهم بدون فدية جربا على مآثور سياسته ورغبة منه في أن يعرف وقع عودتهم على مجلس الشيوخ والرأي العام الروماني

ولأول مرة أمر هانيبال بأن ترسل جميع النقود الفضية التي وجدت في ميدان المعركة إلى خزانة الجيش أو بالأحرى خزانته بعد أن انقطع اتصاله بموارد الفضة في أسبانيا .

وأطلق هانيبال سراح عشرة من الأسرى الرومان بعد أن جعلهم يقسمون على العودة إلى معسكره وطلب إليهم أن يذهبوا إلى روما لاحتضار القدية ..

وزيادة في الحيلة أوفد هانيبال مساعده كارثالو مع الرسل الرومانيين ..

وزود هانيبال مبعوثه بتعليمات محددة : إذا أبدى الموظفون الرومان ميلا إلى سلام فإن على كارثالو أن يعرض عليهم شروطاً عادلة ..

وعاد كارثالو بمفرده في مدى أيام . وقال أن حراس بوابة روما رفضوا السماح له بدخول المدينة وأذروه بالرحيل قبل غروب الشمس ..

وبعد مضي أيام أخرى عاد تسعة من المندوبين الرومان العشرة بعد أن تنكر العاشر لتسمه ولم يعد ، وقالوا أن مجلس الشيوخ قرر رفض دفع أية قدية .

ولعل هانيبال لم يكن يتوقع أكثر من ذلك ، وإن كان من

المحقق أنه كان يتمنى إقرار السلام بعد معركة كاناي .

وقد تبين حينذاك أن بعض العناصر الرومانية استطاعت
الآفلات من مذبحه كاناي من بينها بابليوس سديو وبعض الضباط
من اعتقدوا أن الرومان خسروا الحرب ، فبادروا بالفرار قبل أن
يتم حصار الجيش وابعاده ثم رحلوا إلى صقلية .

وفي النهاية تجمع ١٠.٠٠٠ جندي روماني مع فارو ، القنصل
الذي بقي على قيد الحياة ، عند مفترق طرق فينوسيا ، وأبلغوا
روما أنهم على استعداد للنزول إلى ميدان المعركة من جديد .

وعندما عاد فارو نفسه إلى روما للتشاور ، قابله فايوس عند
شارع ساكرا وشكره علنا لأنه لم يخذل الدولة الرومانية ، فأعلن
فارو تعيين فايوس ديكتاتورا .

وتملك مدينة روما حتى مجنونة في تلك الآونة ، فقد أطلق
سراح المسجونين ليحملوا السلاح ، وأعلنت حالة التقشف ، وفرضت
ضرائب جديدة ..

وفي تلك الأثناء جاء مبعوثو هانيبال من الأسرى الرومان
يعرضون شروطه وهي طلب الفدية لإطلاق سراح الأسرى .

وبرغم لفظة الرأى العام ، فقد قرر مجلس الشيوخ رفض العرض بحجة أن سلوك هؤلاء الأسرى لا يتلاءم مع الروح العسكرية الرومانية وهى الانتصار أو الموت فى ميدان القتال . . وإنه كان ينبغى عليهم أن يحاولوا اقتحام معسكر الأعداء مثل الكثيرين الذين فعلوا ذلك وعادوا للدفاع عن وطنهم .

وعندما علم مجلس الشيوخ إن تسعة من المندوبين عادوا لأبلاغ قراره لهانيبال وإن العاشر حثت بوعدده ، أمر بالبحث عن هذا العاشر . وعندما عثر عليه أعيد للقرطاجيين تحت الحراسة

ولكن هانيبال استطاع أن يحصل على الفدية التى أرادها من تجار رقيق ديلوس . . وثارت نائرة روما حينما علمت أن جميع رجال جيشها الذين أسرههم الجيش القرطاجنى أصبحوا رقيقاً أذلاء وأسلمهم شكلوا على هيئة فرقتين ليدافعوا عن صقلية بدون مقابل .

وقفت روما طوال شهر أغسطس وهى تعزز استحكاماتها استعداداً للغزو المرتقب . . ولكن هانيبال لم يذهب إلى روما وإنما انطلق إلى نابلى .



وهنا لابد لنا من كلمة عن الأحداث التي كانت تقع في الجهات
الأخرى..

فبعد معركة كاناي بأيام قليلة ظهر أسطولان بحريان قرطاجنيين
أمام جزيرة صقلية ، وقد مر أحدهما من أمام ميناء سيراكيوز
بغير ماسبب ظاهر ، ثم اختفى .. وأفاق ذلك بال القائد الروماني
فأرسل يطلب العون من مجلس الشيوخ بروما . وبرغم الكارثة
التي حلت بالرومان ، فقد بعث مجلس الشيوخ ٢٥ قارباً كبيراً
للقائد وطالب إليه أن يتصرف حسبما يراه في مصلحة الدولة .

وهكذا راح القسواد الرومان يراقبون البحر الضيق الذي
يفصل سيراكيوز عن قرطاجنة ..

وقد حدث ذلك قبل وفاة هيرو الثاني طاغية سيراكيوز
الموالي لروما . وراح عملاء قرطاجنة يعملون بنشاط في سيراكيوز
وسرعان ما أعلن موظفو المدينة من اليونانيين الولاء لقرطاجنة .
وعلى بعد أكثر من ٥٠٠ ميل شمالاً ، نصب البوى والانسوبر
نفخاً لجيش روماني قوامه ٢٥٠٠٠ جندي ، ونكلوا به وقتلوا
قائده . وكانت إحدى فرقتي هذا الجيش مكونة من الأسرى الرومان
الذين باعهم هانيبال لتجار الرقيق ..

وعلم هانيبال بكل هذا . وعندئذ قرر الرحيل من شاطئ البحر الادرياتيكي الذي قدم له أجل الخدمات . وزحف عبر تلال الابنين . فأغلقت بعض المدن أبوابها ، ولكن فلاحى أبوليا . منطقة كاناي - والسامنين الأشداء تجمعوا وأعلنوا مسالمتهم لهانيبال وعلى الساحل الجنوبي الغربي - رحبت المدن اليونانية بالقائد القرطاجنى . وجاء إلى معسكره مندوبون من كابوا ليناقشوا شروطه فتحهم هانيبال كل ما طلبوه من الحرية . والحماية ، وعدم الاشتراك فى الحرب .

ثم قاد جيشه الكبير الظافر جنوباً إلى نابلى الميناء الكبير على الساحل الجنوبي . .

وحينما وصل هانيبال إلى البحر أرسل أخاه الأصغر ماجو إلى قرطاجنة ، وأمام مجلس المدينة ، أدلى ماجو بتقرير مستفيض عما حدث فى كاناي ، والاتفاقات التى أبرمت مع أبوليا وسامنيوم وكالابريا - وسكب ماجو من سلة معه ٦٠٠٠ خاتماً ذهبياً لنبله روما الذين قتلوا فى كاناي .

وطلب ماجو من المجلس أن يرسل لهانيبال ٤٠٠٠ جواد

نوميدي و. و. فيلا وكية من النقود الفضية وبرغم معارضة خصوم
أسرة بارسا ، فقد قرر المجلس ارسال جميع ماطلبه هانيبال .

كما قرر ارسال ٢٤٠٠٠ جندي من المشاة والفرسان إلى
اسبانيا . . وكان الغرض من ذلك أن يتمكن هاسدروبال من تحطيم
جيش الاخين سييو الموجودين على نهر ابرو ، واللاحاق بهانيبال
في إيطاليا لتدمير قوة روما نهائياً . .



وعندما دنا فصل الشتاء رأى هانيبال أن يكيل لاسطول
روما البحري أول ضربة .

كان يعلم أن أساطيل العدو التي يجب التغلب عليها بطريقة ما
تعتمد ولا ريب على القوات المقاتلة الموجودة على السفن . فهل
يمكن الاستغناء عن القوات التي يجب أن توجد على ظهر هذه السفن
بعد معركة كاناي ؟ لم يكن في استطاعة هانيبال أن يجيب على هذا
السؤال ، ولكنه كان يعلم أن الأساطيل تعتمد أيضا على قواعدها
في سيراكيوز ونابلي ونارتم ولوكري ورجيوم وغيرها من
الاماكن . وكانت سيراكيوز قد طارت فعلا من يد الرومان ،

بينما كان جيش قرطاجنة يغذ السير إلى نابلي . وأهم من ذلك كله
أن بحارة السفن كانوا ينتمون إلى القواعد التي ترسو السفن فيها .
ومن ثم فإنهم أكثر إخلاصاً لبلادهم منهم لروما .

وعندما أصبح ابن هاملكار قريباً من نابلي تبين له أن المدينة
الصغيرة عززت استحكاماتها ضده ، ولما كان الشتاء على الأبواب
فقد رأى ألا جدوى من حصار مرفأ مفتوح من ناحية البحر ،
ومن ثم مضى بجيشه إلى كابوا ملائكة الأرض الجنوبية .

وكانت كابوا تعنى أكثر من معسكر شتوى مريح لجيشه .
وكان من الممكن أن تصبح عاصمة حلف جديد ضد مدينة روما

الفصل الرابع

صراع الحلفين

عندما دخل هانيبال من بوابة كابوا تخلى عن دور المحارب ليصبح دبلوماسياً . . .

ونزل القائد القرطاجنى فى قصر الأخوة سيلرس ، وطلب الاجتماع بمجلس المدينة ، وقد استقبله النبلاء مرحبين وطاقفوا به فى أرجاء المدينة التى انتشرت فى أرجائها تماثيل آلهة الإغريق

ودعا هانيبال كبار النبلاء لتناول طعام العشاء معه فى المنزل الذى نزل فيه ، وتحدث إليهم باللغة اليونانية التى كان يجيدها ، وبينما كان يتحدث إليهم باحترام راح يقرأ ما يحول بخواططهم . فأدرك أنهم قوم متكبرون ، ولم يعجب لذلك لأن مدينتهم من أعرق مدن إيطاليا وأكبرها

وشعر هانيبال بأنه محاط بجو من الصداقة في مدينة كابوا ..
وبرغم أن جيشه احتل المدينة فعلا فإن هانيبال أصدر أمره
بأن يدفع الجنود ثمن كل ما يشترونه

ومع أنه كان من المفروض أن يستسلم هانيبال للراحة أثناء
الشتاء إلا أنه كثيراً ما كان يمتطي صهوة جواده ويخرج إلى الوادي
مستكشفاً ، وكثيراً ما كان يمر بالسهل الذي نصب فابيوس له فخاً
فيه ، ولكنه استطاع أن يفلت منه بخدعة الثيران . وقد سره أن
يجد المزارعين يعملون في حقولهم بهذا السهل ، ولا يعتبرونه عدواً
لهم بل صديقاً يحنو عليهم

وقبل أن ينتهى الشتاء الأول كان هانيبال قد ظفر بتأييد
بعض الفلاحين البيزنطيين المقيمين على شاطئ البحر الأدرياتيكي
.. وسرعان ما أيقن هانيبال أن العناصر الشعبية في جميع المناطق
المجاورة تؤيده من قلبها على حين كان النبلاء ينفرون منه ويرهبونه ..

واكتشف هانيبال أيضاً أن المدن الساحلية الغنية — ذات
الصلة بالأسطول الروماني — تؤيد روما ، وأهمها مدينة نابلي
ذات المرفأ الكبير (والتي كانت حليفة لروما على قدم المساواة)
ولذلك قرر عزل نابلي من ناحية البر ..

ولتحقيق هذه الغاية أمر هانيبال بعض فصائل من جيشه باحتلال لوكرى وهى مدينة ذات ميناء صغير تقع على ربوة فى خليج تارتو الجنوبى . وما كادت هذه الفصائل تحل بالمدينة حتى شرع أهلها فى إخراجها ولكن هانو استطاع إقناعهم بالبقاء ، وبذلك حصل هانيبال على مكان للمبوط من البحر . وبعد ذلك بفترة قصيرة وصل بومباكار ، أبو هانو ، بقافلة بحرية قصيرة قادماً من قرطاجنة إلى لوكرى . ونزل من السفن عدد كبير من النوميدين بجيادهم و . و فيلا

وهكذا استطاع جيش هانيبال بإيطاليا أن يعيد اتصاله بحراً بقرطاجنة . .

وفى تلك الاثناء قام هانو برحلة استكشافية وحينما عاد أحضر معه ١٠٠٠ ر . من الجنود الأشداء الذين قبلوا الانضمام إلى جيش هانيبال ، وبذلك أصبح فى جيش هانيبال جنود من منطقة سواحل غرب البحر الأبيض المتوسط .. وكما فعل القائد القرطاجنى فى الشتاء الماضى ، فقد نشط فى هذا الشتاء أيضاً لتدريب جنوده الجدد بينما سمح لجنوده القدامى بالاستمرار فى الراحة ..

ولعل هانيبال أخطأ بهذا التصرف إذ يبدو أن جنوده القدامى

أطلقوا العنان لثمواتهم ففقدوا كثيراً من صلابتهم ولهذا قال أحد المؤرخين : « كانت كابوا ككاناي لهانيبال ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هانيبال لم يعد إلى استخدام تكتيكه المعروف مرة أخرى ، أدركنا مدى التغيير الذى طرأ على جيشه . .

وانتهى الشتاء بنصر آخر من نوع جديد ؛ فاستجابة للرسالة التى بعث هانيبال بها لفيليب الرابع ملك مقدونيا على أثر معركة كاناي ، أوفد فيليب مندوبين لمقابلة هانيبال . وابرم الفريقان معاهدة تقضى بتوحيد قوات قرطاجنة ومقدونيا ضد روما ، وتعهدت كل مدينة بمساعدة الأخرى إذا ما تعرضت لآى هجوم ، ووافق هانيبال على تحرير ساحل دلماسيا من الرومان وإعادته إلى حكم فيليب .

ثم أقبل وقد جديد من اليونانيين قادما من سيراكيوز (كان وكلاء قرطاجنة فى المدينة قد نجحوا فى مهمتهم وحققوا الغاية التى أرادها هانيبال) وأعرب رجال الوفد عن رغبتهم فى ان يصبحوا حلفاء لهانيبال فابرم القائد القرطاجنى معهم معاهدة دفاع مشترك . .

وهكذا أصبح هانيبال قائد جيوش قرطاجنة ومقدونيا وسيراكيوز . . وتجمع جيشه حول نيفاتا وبذلك قطع اتصال روما بصقلية برأ . ومع ذلك ظلت الأساطيل الرومانية مسيطرة

على الطرق البحرية عن طريق بحر تيرانا وخليج تورنتو والبحر
الأدرياتيكي ، وأهم منها جميعاً مضيق ميسينا . . إلا أن الرومان
فقدوا ميناء سيراكيوز بالغ الأهمية . ولما كان ميناء نابلي على
بحر تيرانا وتارنم على الخليج لا يزالان يخدمان الرومان ، فقد ركز
هانيبال تفكيره فيهما . .

وفي كل شهر كانت القوافل البحرية تبهر خلسة من ميناء
قرطاجنة الداخلي إلى البحر . .

وخلف هذا الصراع بين الحلفين الروماني والقرطاجني وقف
الجنوب ضد الشمال . . الثقافة الهيلينية ضد العسكرية البربرية .

تنظيم جديد :

أدى ظهور هانيبال في كالابريا المجاورة لروما إلى زعزعة ثقة
الرومان في حظهم ، وما زاد الطين بلة أن حلفاءهم بدأوا يتناقصون
باطراد ، وهكذا أصبح مصير روما نفسها معلقاً على إخلاص ماتبقى
لها من حلفاء . وفي ذلك العام (٢١٥) اضطر مجلس الشيوخ إلى
فرض ضريبة مضاعفة على حلفاء روما مع مضاعفة عدد المجندين
الذين يقدمونهم للقتال في صفوف الجيش الروماني .

وكان فايوس يدرك أن الضغط على حلفاء روما الباقين قد يعرض تحالفهم معها للخطر ولذلك لجأ إلى استغلال الشعور الديني لتقوية الروابط بين الفريقين وتكثيهم ضد العدو الأجنبي : هانيبال .

وعهد فايوس إلى إجراء آخر ، فسمح للمدن التي كانت خاضعة لروما بإدارة شئونها الداخلية بنفسها ، وضم بعض الرجال الممتازين في هذه المدن إلى عضوية مجلس شيوخ روما .

وألقى فايوس جنود حلفاء روما بجناحي الجيش الروماني تحت قيادة ضباط رومان .

وقد أثارت هذه الإجراءات العنيفة استياء حلفاء روما ، فتمرد كثير من المجندين وعندئذ نكل الرومان بزعمائهم حتى لقد قيل أن ٢٧٠ منهم قذفوا من فوق صخرة تاربيان فسقطوا قتلى . . وفي الوقت ذاته رفض مجلس شيوخ روما تخفيف مطالبه من حلفاء روما ، وأرسل حملات تأديبية لإعادة النظام في المدن التي بدت فيها بوادر التمرد .

وامتد الأرهاب إلى الرومان أنفسهم . إذ راح المراقبون يبحثون عن المتذمرين ومعاقبتهم بشدة وبينما كان هذا يحدث في

المعسكر الروماني ، كان هانيبال يبرم المحالفات مع المدن المتدمرة
من روما ويحصل منها على حاجة الجيش من الطعام والشراب
والجياد والأسلحة للقضاء على روما .

أما مدينة تارتوم فاضطرت إلى ترك بعض شباب أسرها العريقة
رهائن في روما ثمنا لسلوك مجتمعا المتمردين . وقد حاول هؤلاء
الرهائن الهرب بعد موقعة كاناي بفترة من الوقت ولكن الرومان
استطاعوا القبض على ثمانين منهم وألقوا بهم من فوق صخرة
تاريديان ، فأثار ذلك نائرة اسرهم ، وبعث التارنتيون برسل
للتحدث مع هانيبال في ذلك .

وأدى فقدان سيراكيوز إلى إصابة زعماء مجلس شيوخ روما
بصدمة عنيفة نظراً لوفرة مواردها وتفرد موقعها . وبما زاد
الطين بلة أن تمردت سردينيا ، بينما أبرم ملك مقدونيا معاهدة
مع هانيبال .

وبرغم هذه الانباء المزعجة ، مضى زعماء روما في تعبئة جميع
الموارد المتاحة لهم استعداداً لليوم الفاصل .

وعهد مجلس الشيوخ الروماني إلى ضابطين محنكين هما كراسوس

وماوسيلوس بمنصب نائب قنصل ومنحهما سلطات غير محدودة
لمدة عام . وسرعان ما أصبح لقب مارسيلوس « سيف روما » .
ونزل فابيوس نفسه إلى الميدان مرة أخرى .

وأسرع مارسيلوس إلى نولا خط الدفاع الخارجى عن نابلى
حينما تبين أن هانيبال بدأ حصار نولا .

فتح أبه اب تارتم :

كان هانيبال لا يزال يتجنب الهجوم على أية مدينة حولها
أسوار وتستعمل الآلات فى الدفاع عن نفسها ، ولهذا كان يكتفى
بمحاصرتها وقطع الطعام عنها . وقد اضطرت كاسيلينيوم إلى
الاستسلام أخيراً بعد أن كاد أهلها يهلكون جوعاً . وكان هانيبال
يعود ادراجه بعد كل جولة إلى نولا المدينة التى تتحكم فى الطرق
المؤدية إلى نابلى حيث كان أهلها يرحبون به أجمل ترحيب .

وأبدى مندوبو السامنيين تذمرهم لأن الحملات التأديبية المرسلة
من نولا خربت أراضهم ، فأرسل هانيبال فرقة لمحاصرة أسوار
نولا ، وهناك تكتيكاً جديداً من دفاع قوى تولاه مارسيلوس

فقد أمن القائد الرومانى مداخل المدينة ، ثم خرج بفرسائه منها
لجأه للملاقاة القرطاجنيين .

ودارت بين الفريقين معركة جارية . ولأول مرة منذ بدأت
الحرب بين قرطاجنة وروما أصيب جيش قرطاجنة بخسائر فى
الأرواح تفوق خسائر جيش روما .

ولجأه ، أختفى القرطاجنيون من ميدان المعركة ذات ليلة . .
فتحرك القائد الرومانى إلى الامام بحذر لمعرفة الطريق الذى يسلكه
جيش هانيبال ، ولكن هانيبال كان قد أبتعد بجيشه حيث
سلك التلال المؤدية إلى تارتم ومعه رجلان من رجال المدينة
عرضا عليه أن يهدا له سبيل الدخول من بوابة المدينة .



بعد أن أخفق القرطاجنيون فى نابلى ونولا قرروا ألا يفلتوا
فرصة التسلل إلى ثانى ميناء كبير فى الجنوب . وفعلا استطاع
القرطاجنيون الاستيلاء على تارتم بالحيلة والخداع .

وحينما عرف القائد الرومانى الحقيقة بأدركوب سفينة كانت
راسية فى الميناء ولاذ بالهرب إلى القلعة .
وعندما طلع النهار كانت المدينة فى قبضة هانيبال .

ولكن قلعة المدينة المشيدة عند فتحة الميناء ظلت في قبضة
الرومان . وهكذا تعذر على هانيبال الافادة من الميناء .

* * *

وفي ليلة أخرى وقع هجوم من نوع مختلف جداً في ميناء آخر .
حاول القائد الروماني الهجوم على سيراكيوز من ناحية البحر .
وكان اسطول الغزو بقيادة مارسيلوس شخصياً ولكنه فشل
لقوة الدفاع عن أسوار الميناء .

ولم يفت الفشل في عضد الرومان ، فحاصروا الميناء حتى
استطاعوا أن يتسللوا إليه بالخيانة ذات ليلة حينما كانت الحامية
تحتفل بإحدى المناسبات .

وما كادت الفرق الرومانية تسيطر على الميناء حتى بدأت تعيش
في المدينة فساداً .

وانتشر نبأ استيلاء الرومان على سيراكيوز في الجزيرة ،
فأثار المقاومة في القسم الغربي فبعث هانيبال قائداً نو ميديا لقيادة
جيش قرطاجنة الذي كان يواجه مارسيلوس ، لأن مضيق مسينا
كان يعترض طريق هانيبال نفسه للوصول إلى صقلية .

* * *

بعد معركة كاناي حاول هاسدروبال أخو هانيبال أن يطيع
الأمريشي طريقه بين جيشي الأخوين سيبيو ويزحرف على
إيطاليا ؛ إلا أنه أساء التصرف فأدى ذلك إلى تحطيم جيشه على
خط ابرو ، وراح الحذران سيبيو يدفعان جيش هاسدروبال إلى
جنوب أسبانيا .

أما حملة بوميلكار إلى سردينيا فاستطاعت مراوغة أسطول
الحراسة الروماني ، ولكن العواصف اضطرتها للاتجاه إلى جزر
البليار التي كانت دائماً صديقة لقرطاجنة ، وعندما استطاعت
هذه الحملة أن تنزل على شاطئ " سردينيا الصخرى ، كان توركواس
اليوناني قد استطاع سحق ثورة أهل الجزيرة ، ثم قضى على حملة
قرطاجنة بسبب سوء تكتيكاتها . .



انتخاب مساعد قنصل لاسبانيا :

حدثت كاناي أخرى في أسبانيا ؛ فقد قتل مساعدا القنصل
بابليوس وسيبيو اللذان كانا يتوليان قيادة الجيش الروماني ،
وأبيد جيشاهما تقريباً ، وهربت فلولها بلا قواد إلى ابرو .

وأزعجت هذا الأنباء الخطيرة مجلس شيوخ روما ، إذ تبين أن سبب الهزيمة أن جنود السكت تخلوا عن الجيش الروماني بسبب صداقة بلادهم لاسبانيا ، ثم ظهر شاب نوميدى هو ماسينيسا أمام الجيش الروماني واستطاع أن يفر بفرقه حتى أحاط الفرسان القرطاجنيون بهذه الفرق ، وتمكن بعد ذلك من فصل جيش الأخوين سبيو عن بعضهما والفتك بكل منهما على حدة بمعاونة أخوى هانيبال ، هاسدروبال وماجو وقائد قرطاجنى ثالث . وهكذا لم يعد الطريق مفتوحاً إلى أبرو لحسب وإنما أيضاً إلى جبال الألب ..

وفى إيطاليا نفسها كتبت السيادة لهانيبال فقد أصبحت معسكراته الامامية شرق جبال الابنين وغربها فى لوكرى وكاسيلينيوم على بعد ١٥٠ و ١١٠ ميلا من المدينة الواقعة على نهر التير . ولقد نصب القرطاجنيون نفخاً لاكثر قواد الفرسان الرومان جرأة ، سميردنياس جراسكوس حينما كان يستحم فى النهر وقتلوه ثم أرسلوا جثته مع كارثالو ، وهو مدنى قرطاجنى الرومان .

وهكذا أيد القواد الرومان ، ولم يتبقى منهم غير مارسيلوس

الذى كان يستطيع الصمود أمام الافريقيين المراءوغيين ، إلا أنه لم يكن فى الإمكان الاستغناء عنه فى إيطاليا وإرساله لتدعيم خط القتال فى جبال برنيز بأسبانيا .

و حينما حان موعد الانتخابات فى عام ٢١١ واجه مجلس شيوخ روما موقفاً عصيباً ، فلم يكن هناك أمل فى الحصول على القمع من سردينيا بعد أن دمرتها الحرب ، ولا من صقلية التى اجتاحتها وباء ولقد كانت حركة التطهير الدموية التى قام بها مارسيلوس وسيلة فعالة للقضاء على التمرد وإعادة النظام إلا أنها حرمت الزراعة من أيد كثيرة . وفى الوقت ذاته لم يكن مفر من تسريح الأرقام الذين ضموا إلى الفرق الرومانية بعد معركة كاناي لأنهم كانوا يعرقلون عمل الجيش ولا يهتمون إلا بالسلب والنهب .

وهنا برز محامى شاب اسمه بابليوس كورنيليوس سبيو على المسرح .. كان فى الثانية والعشرين من عمره ، وهو ابن القائد السابق الذى قتل فى أسبانيا . وقد اشتغل بالسياسة وانتخب عضواً فى مجلس الشيوخ .

كان بابليوس كورنيليوس سبيو شاباً متقشفاً يكثر من التردد على معبد جوبيتر بالليل ويخلو الى نفسه هناك حتى سرت شائعات

بأن الإله تبنى هذا الشاب وبالأخص لما كان يديه من نفور من
النساء وتباعد عنهن . .

وقرر أعضاء مجلس الشيوخ انتخاب الشاب سيبو لتولى
القيادة فى أسبانيا بوصفه نائب قنصل .

وكان سيبو الصغير شاباً طموحاً ، حاد الذكاء ، فاستطاع أن
يستنتج ما غاب عن أسلافه من كبار القواد وذلك أن هانيبال
يخدم قرطاجنة لا نفسه . .

وقرر سيبو أن ينفذ خطة أبيه .. السعى إلى النصر عن طريق
غزو أسبانيا باعتبارها قنطرة إلى إفريقيا .

نبتون فى قرطاجنة الجديدة :

تزل سيبو إلى البر مع فرقته فى أمبوراي شمال ابرو ، وكانت
فلول الجيش الذى هزم قد تجمعت هناك مع النجدات
التي أوفدتها روما .

ويبحث سيبو عن الضابط الذى تولى القيادة بعد الفاجعة ،
وسرعان ما عثر عليه . . كان اسمه لوسياس ماركيوس ، وكان شاباً
فى مثل سن سيبو ، فاستبقاه سيبو إلى جانبه واعترف له بصراحة

بأنه يجهل جميع ظروف الجبهة الأسبانية ..

وعقد سييو اجتماعات عديدة مع رجال الجيش تحدث فيها
عن وجهة نظره . فقال إن هزيمة الجيش الروماني نتجت
عن تقسيمه إلى قسمين ، ووعدهم ألا يحدث ذلك مرة أخرى
وعلم سييو أن قيادة ماجو قضت فصل الشتاء بالقرب من
جبل طارق بينما كان هاسدروبال ينتظر في أراضي كانتبريا والجيش
القرطاجي الثالث بالقرب من الأطلنطي ، أي أن الجيوش القرطاجنية
الثلاثة كانت تبعد مسيرة عشرة أيام عن قاعدتها في قرطاجنة
الجديدة ..

وعندما أوشك الشتاء على الانتهاء قاد سييو جيشه جنوباً ،
وكان الأسطول يرافق الجيش من البحر

وحينما أشرف سييو بجيشه على قرطاجنة الجديدة وعد بمنح
أول جندي يستطيع تساق سورها تاجاً من الذهب ، وقال
لجنوده أن نبتون ظهر له في الحلم ووعده بالعون والمساعدة

وبدأ سييو هجومه على سور المدينة . وبعد الظهر استصحب
... جندي ومعهم السلام وذهبوا إلى الخليج في الناحية الشمالية

من المدينة . ونحاض سبيو ومن معه الماء حتى بلغ سيقانهم ، ثم أمر
سبيو رجاله بوضع السلام على السور

وحينما هبط الرومان في الشوارع ألفوها نصف مهجورة ..
وهكذا استطاع جيش سبيو أن يعصف بقاعدة قرطاجنة
الجديدة في أقل من سبع ساعات واستولى في يوم واحد على الميناء
الوحيد الكبير الذى يحمى القوافل البحرية القادمة من أفريقيا ..
وقد أثار هذا النصر الخاطف حماس الرومان لأنه كان نصراً
غير متوقع ، فبدأوا يستردون ثقتهم بأنفسهم ..



في هذه المرحلة الحرجة أى فيما بين عامى ٢١٢ و ٢١٠ كانت
تحركات هانيبال غامضة ؛ ولذلك تعذر على المؤرخين أن يتكهنوا
بما كان يعمل فى نفسه من آمال أو مخاوف ؛ بيد أنه من المحقق
أنه استطاع أن يفلت من مراقبة أعدائه ..

وحرص هانيبال على تعزيز استحکامات مدينة تيغانا التى
اتخذ منها مركزاً لقيادته ، كما دعم الحاميات القرطاجنية التى كانت
تحتل معظم مدن جنوب إيطاليا بعد أن فقد كابوا

ذلك أن الرومان حشدوا أكبر قوة لديهم لاستعادة كابوا..
وعندما علم أهالي المدينة بذلك بعثوا إلى هانيبال يستنجدون به ،
وكان هانيبال مشغولا حينذاك بمهاجمة قلعة تارتم ، فأوفد هانو
وفرسانه لمساعدة أهل كابوا ، واستطاع هانو أن ينزل بالرومان
خسائر فادحة ، ولكنه لم يستطع فك الحصار المضروب حول
المدينة .. وعاد جيشا القنصلين الرومانيين إلى الإطباق على المدينة
فاستغاث أهل المدينة مرة أخرى بهانيبال الذي جاء بنفسه هذه
المرّة ومعه المشاة والفيلة . ونشبت بين الفريقين معركة حامية ،
وبرغم الخسائر الفادحة التي منى بها الفريقان فقد تشبث الرومان
بمواقعهم في عناد .. وعندئذ أدرك هانيبال عقم الاستمرار
في المحاولة فبعث إلى الأهالي المحاصرين برسالة طالبهم فيها بالمضي
في المقاومة عدة أيام

ثم انطلق هو بجيشه في طريق روما

دلم يأت لمحاضرة روما ، :

في تلك الليلة جمع القرطاجنيون كل القوارب التي استطاعوا
الحصول عليها وعبروا النهر مع فيلتهم تحت جناح الظلام . وعلى

الشاطئ. الثاني انضم إليهم فرسان هانو وماجو الذين كانوا يغطون زحفهم شمالاً ، فإذا طلع النهار كان القرطاجنيون قد ابتعدوا كثيراً عن كابوا ..

ترى هل كان هانيبال يرغب في مفاجأة المدينة الكبيرة على نهر التيبر بعد انقضاء سبع سنوات على بدء القتال ؟ إن الطريقة التي رحل بها عن كابوا إلى روما توحى بذلك .

وبعد مسيرة عدة أيام، سمح هانيبال لطواير جيشه بالاستراحة يوماً ، وفي اليوم التالي انتشر فرسانه على شكل مروحة في السهول وأحرقوا المحاصيل التي أوشك حصادها أن يتم ونشروا الذعر بين السكان . . وحمل الرسل أنباء هذا الزحف إلى نائب القنصل الذي كان يحاصر كابوا وإلى أبواب روما .

ولم يستأنف هانيبال الزحف نحو روما، ويبدو أنه كان يعتمد افساح الوقت أمام أعدائه ليروا خط زحفه ، ، بل وأن تتبادل روما الرسائل مع القائد الذي يحاصر كابوا، ولعل غايته من ذلك كانت حفز الجيش الذي يحاصر كابوا على رفع هذا الحصار والمبادرة بالحضور لملاقاته لمنع هجومه المرتقب على روما .

وكاد مجلس شيوخ روما يصدر قراراً باستدعاء الجيوش في

كأولاً تدخل فاييوس الذي كان يعرف الشيء الكثير ، فقدراح
يؤكد للمجلس أن هانيبال الذي فشل في اقتحام كابوا لن يستطيع
اقتحام أسوار روما المنيعة . . وأضاف بأن هانيبال ثعلب ما كر
ما جاء إلى روما إلا ليرغم الرومان على رفع الحصار عن كابوا .

وهكذا اكتفى مجلس الشيوخ بمطالبة قائد جيش كابوا بإعادة
الفرق التي يمكن الاستغناء عنها دون إضعاف للحصار ، وفعلاً أرسل
القائدان . . . ١٥٠٠ جندي ، وقد تأخرت عودة هذه القوات نظراً
لما تبين لها عند محاولت عبور النهر من أن هانيبال أخرج القوارب
التي استخدمتها قواته في عبور النهر . . ومع ذلك فقد بلغت القوات
الرومانية أبواب المدينة من الجهة الجنوبية قبل أن تلوح طلائع
قوات هانيبال على خط الأفق ، .

وعسكر هانيبال بجيشه على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وأخذ
معه حرساً من الفرسان ثم ارتقى ربوة عالية خارج بوابة كولينيا
وراح يتأمل السور المواجه له . .

ولاحظ أن هناك حراسة قوية على السور مدعمة بالآلات . .
وقال له بجواسيسه أن بالمدينة حامية مكونة من ثلاث فرق، بينما

أخذت الإمدادات التي جاءت من كابوا مواقعها في السهل تحت
حماية الأسوار ، ومع أن عدد المدافعين تجاوز ٣٥٠٠٠ جندي إلا
أنهم لم يحاولوا الخروج للآفاة المهاجمين ، بينما راح القرطاجنيون
يعيشون في الأرض فساداً ..

ولجأة ، اختفى هانيبال بجيشه وفيلته ، ولم يترك في هذه المرة
أثراً يدل على وجهته ..

نهاية مدينة :

عندما اختفى هانيبال من ضواحي روما توقع مجلس الشيوخ
أن يعود إلى كامبانيا ، ولكنه لم يفعل ذلك وإنما مضى بجيشه جنوباً
إلى أن باغ طرف إيطاليا الجنوبي . وهناك انقض على رجيوم
ميناء النزول الروماني إلى صقلية أمام مسينا .

ويبدو أن هانيبال أراد بهذه الحركة غير المتوقعة أن يقدم
معونة فعالة لأساطيل قرطاجنة البحرية ذات الأهمية البالغة وكانت
هذه الأساطيل لاتزال تحوم حول الجانب الغربي من صقلية وتهاجم
سردينيا وتحاول نقل المتدوينين عبر الأدرياتيكي ، ولكنها فشلت
في تحدي سيادة أساطيل الرومان التي كانت تتكون من ٢١٥ سفينة ،

إلا أن أسطول تارتو اتحد مع الأساطيل القرطاجنية واستطاع
الاثنان تدمير الأسطول الروماني الذي كان يحرس مضيق ميسينا ،
واستطاع هانيبال أن ينتزع موانئ لوكرى وكروتون ومتابونتا
وتارتم من أعدائه ..

يبد أن رجيوم كانت منيعة ، وعندما فشلت المباحثة في تمكين
هانيبال من الاستيلاء عليها ، تحول القائد القرطاجني عنها مثلما فعل
في نابلي ..

ثم استسلمت كابوا بعد أن يثست من نجدة هانيبال لها .
ولما كانت أراضيها من أكثر أراضي إيطاليا خصوبة ، فقد
استطاع الرومان أن يجعلوا منها مصدراً للإنتاج لمصلحة روما .
وأدى سقوط كابوا إلى تحرير الجيوش الرومانية التي كانت
تحاصرها ، وجاء مارسيلوس من رجيوم ليتولى قيادة الزحف ضد
جيش هانيبال الزئبقى .

وكان مارسيلوس شاباً صلب العود ، يرى أن خير وسيلة
لدحر هانيبال هي أرغامه على الاشتباك في القتال .

وفي هذه الفترة (٢٠٩ - ٢٠٨) كان جيش هانيبال قد

أصبح شعباً متحركاً بعد أن انهكت حرب استمرت تسع سنوات
قوى رجاله ، وقضت على معظم المحاربين الأشداء الذين عبروا
جبال الألب .. أما هانو وفرسانه الأقوياء فلم يظهر لهم أثر .
وكان هانيبال وحده هو الذى يعرف حقيقة قوة جيشه واحتفظ
بها سرّاً لنفسه . ثم أنه كان مضطراً للاحتفاظ ببعض الحاميات
في موانئ خليج تارتو الباقية نظراً لأنها سبيله الوحيد للوصول
إلى البحر ، وإذا تركت بلا دفاع فإنها ستسقط حتماً في أيدي العدو
أوشك عام ٢٠٩ على الانتهاء وراح الرومان يتحسسون
طريقهم وراء مارسيلوس وهو منطلق جنوباً كالسهم ، بعد أن
أصبحت تحركات هانيبال الخاطفة مبعثاً للحيرة . . كان يبدو أنه
يدافع عن الموانئ ، وفي الوقت ذاته ينسحب أمام مارسيلوس
من مرتفعات برايتوم نحو سهل أبوليا . فيندفع مارسيلوس
في أثره محاولاً الاشتباك معه .

وقد كان ، واشتباك الجيشان ، وفي اليوم الأول من المعركة
ألقى الرومان بالقرطاجيين إلى الوراء ، إلا أن هؤلاء أطلقوا
فيلتهم على المهاجمين في اليوم التالي . ولكن الجنود الرومان أطلقوا
سيلة من الكرات النارية على القيلة فارتدت . .

وفي تلك الليلة ألقى مارسيلوس خطاباً حماسياً في جنوده
وطالبهم بالاستماتة في مهاجمة العدو والقضاء عليه . وأعلن أنه
سيتولى قيادة العمليات بنفسه .

وفجأة ، برز جيش هانيبال من وراء أحد التلال واشتبك
مع الرومان في معركة حامية قتل فيها مارسيلوس وجرح القنصل
الثاني جرحاً قاتلاً . وهكذا حرم الرومان من القادة .

وحينما وصلت هذه الأنباء إلى روما أحدثت فيها فزعاً
ويأساً قاتلين .

وفي تلك الاثناء ، جاءت الأنباء من أسبانيا تفيد بسقوط
قرطاجنة الجديدة في يد سديو ، فانتعشت آمال الرومان قليلاً . وزاد
فرحهم عندما وصلت إلى المدينة قافلة كبيرة محملة بالسبائك الفضية
ومئات الأسرى القرطاجنيين الذين أسروا في أسبانيا . .

وبعث مجلس الشيوخ الروماني برسالة إلى فيليب ملك مقدونيا
يبلغه فيها بسقوط قرطاجنة الجديدة . .

وهكذا أخذ ميزان القوى في البحر الأبيض يتغير أخيراً ،
فبدأ نجم روما في الارتفاع ونجم قرطاجنة في الأفول .

سقوط تارتم .

ظلت قلعة تارتم تقاوم بعد ثلاثة أعوام من الحصار ، وأخيراً جاء أسطول قرطاجنى قوى ليحاصر القلعة من البحر . إلا أن هذا الأسطول مالبت أن أبصر عندما اقتربت سفن الرومان منه . وهو أمر يدعو للدهشة حقاً .

وهنا سقطت مدينة تارتم فى يد فاييوس ..

ولم يستطع هانيبال إنقاذها لأنه كان يبعد عنها أكثر من مائتى ميل ..

وفى تلك الاثناء كان هانيبال قد استطاع رفع الحصار المضروب على ميناء كولونيا على بعد أكثر من ١٥٠ ميلاً . . . وحينما بلغه نبأ تحرك فاييوس ضد تارتم ، سارع بقواته على طول الساحل . ولكنه سرعان ما سمع بنبا سقوط تارتم فقال معقباً : إذن فقد عثر الرومان أخيراً على هانيبال آخر ا . .

وحاول هانيبال أن ينصب فخاً من نخاخه المشهورة للقنصل الكهل ، ولكن فاييوس « المعوق » لم يتخدع ..

وهنا صارع هانيبال ضباطه بالحقيقة .. قال : لقد خسرنا

الحرب في إيطاليا ما لم نستطع أن نحصل على قوة جديدة ..
ولم يكن قول هانيبال بعيداً عن الحقيقة .. فقد سقطت تارتوم
وسقط معها الميناء الحيوى الذى يصله بحليفته الكبرى مقدونيا ..
وسقطت أيضاً قرطاجنة الجديدة وهى مدينته الخاصة ، وفي إيطاليا
ذاتها فشل هانيبال في كسب السواد الأعظم من الشعوب إلى جانبه
كما انعدمت كل وسيلة تصله بقرطاجنة في أفريقيا

وهكذا لم يبق غير احتمال واحد .. لو استطاع أن يعزز
جيشه بدرجة كافية ، فمن المحتمل أن يتمكن من القضاء على
الجيوش الرومانية المتجمعة في معركة أخيرة ..

ربعث هانيبال برسالة عاجلة إلى قرطاجنة يبحث فيها أخاه
هاسدروبال على المجيء بأكبر عدد ممكن من القوات عبر جبال
الالب ...

الفصل الخامس

سبيو ضد هانيبال



كان سبيو شابا حسيفا كما قلنا ولذلك أدرك السر في ان القرطاجنيين حرصوا على ان تكون لهم ثلاثة جيوش متفرقة .. عرف ان اسبانيا - وهي شبه جزيرة شاسعة نصفها من الصحارى - ومدنها شديدة التباعد ومواردها محدودة تستدعى وجود قوات كبيرة من الفرسان تستطيع ان تتحرك بسرعة في هذه المسافات الشاسعة .

ولاحظ سبيو ايضا ان الجيوش القرطاجنية تعسكر على افراد ، ولكنها تقاتل متحدة . ومن ثم فانه اذا ذهب في اثر احد الجيوش فان الجيشين الاخرين لن يلبثا ان يلحقا به كما فعلا مع ابيه وعمه . ولهذا احتفظ سبيو بجيشه الوحيد قريبا من قاعدته في قرطاجنة الجديدة ومن جبال الفضة الثمينة .

وادرک سبيو انه من العبث ان يقوم بحملة ناجحة في اسبانيا ما لم يحصل على تاييد ولو جزء من سكانها وهنا خطرت له فكرة رائعة : ان خير وسيلة لملاقاة هانيبال هي محاكاته ..

واستعد سبيو لاستعمال اسلحة هانيبال ضد هانيبال . فبعد سقوط قرطاجنة الجديدة امر سبيو جنوده بالتوقف عن اعمال السلب والامتناع عن اساءة معاملة الاسبانين الوطنيين .

ولقد أحدثت هذه السياسة أثرها فعلا . فقد استمالت
إليه بعض القبائل الهامة على شاطئ أسبانيا الشرقي . أما
سكان أنقطاع الأسباني الشمالي . فلزموا الهدوء . ولكن
الكلت الذين كانوا يقيمون في منتصف أسبانيا ظلوا على
ولائهم الشديد أحلفائهم القرطاجنيين

ورأى سبيو أن يعمل على تلافى نقط الضعف الموجودة في
جيشه . . وكان أهم ما يشغل باله في تلك الأثناء تقوية سلاح
فرسانه . ولهذا عمل على الاتصال بالمغاربة والنوميديين على
الساحل الأفريقي المجاور . كما درب فرق المشاة على تكتيك
جديد يتسم بسرعة الحركة وسلاحهم بالسيوف الأسبانية ذات
الحدين . والرمح الحديدية الأخطر التي اكتسبت هانيبال
سلسلة انتصاراته الأولى . .



وفي صيف عام ٢٠٨ . ارغم هاسدروبال الرومان على
التحرك ضده . . ذلك أنه بعد أن قضى الشتاء في المنطقة
الوسطى زحف بجيشه إلى الجنوب الشرقي وبذلك هدد
مناجم الفضة التي استولى الرومان عليها . وعندئذ اضطر
سبيو أن يتحرك لملاقاته بغير أن يعرف أين يمكن أن يكون
جيشا قرطاجنة الآخرين . .

هاسدروبال في بايسولا أ

قال بوليبيوس : « كان هاسدروبال رجلا بأسلا يواجه
الهزيمة بروح أبيه البطل العظيم بارسا . . وكان قائدا ممتازا
لا يترك شيئا للصدف ولهذا استحق التقدير والثناء »
وليس من شك في أن سبيو كان يحترم خصمه وبالاخص
بعد أن استطاع أن يسخر من القائد الروماني الكبير نيرو .

فقد استطاع نيرو أن يوقع بالجيّش القرطاجنيّ في سهل مقفل
مثلاً فعل فاييوس مع هانيبال في إيطاليا . فعمدها سدروبال
إلى مفاوضة نيرو ومناقشة شروط الصلح ، واستمرت
هذه المفاوضات أسبوعاً استطاع جيّش هاسدروبال خلاله أن
يتسلق السهل المقفل ختفه . وفي نهاية الأسبوع قطع
هاسدروبال المفاوضات وخرج هو أيضاً من الفخ - ثم جاء
سبيو ليحل محل نيرو . ومع أن هاسدروبال تقابل ثانية
مع نيرو إلا أن لقاءهما لم يكن في أسبانيا

ولعل سبيو لم يكن يعلم أن هانيبال حث أخاه على ترك
أسبانيا في ذلك الصيف . إلا أن مجلس أنشيوخ أصدر أمره
إلى سبيو بالآ يسمح لهاسدروبال بعبور جبال برنيز
ووجد سبيو أنقرطاجنيين في واد طويل أسفل مدينة
بايسولا . وكان هاسدروبال قد ضرب معسكره في مسطح
من الأرض تحميه التلال وبأسفله نهر صغير . وتعذر على
سبيو معرفة عدد قوات هاسدروبال « الواقع أن جيّش
هاسدروبال كان مكوناً من ٢٥.٠٠٠ جندي . بينما كان عدد
جيّش روما ٣.٠٠٠ علاوة على عدد غير معروف من الأسبانيين
الذين انضموا إليه »

وبرغم صعوبة قيام سبيو بالهجوم ، إلا أنه كان مرغماً
على مهاجمة أنقرطاجنيين

وقام سبيو ببعض مناورات سريعة بعد معركة حامية مع
الفرق القرطاجنية ، وبرغم أنه استطاع انقضاء على قوات
هاسدروبال الخفيفة وقوامها ٨.٠٠٠ رجل ، إلا أن أقوى فرق
هاسدروبال انتهزت الفرصة وأفلتت من المعركة وانطقت مع
قائدها و ٣٢ فيلاً إلى جبال برنيز . .

لم يستطع سبيو ان يطارد هاسدروبال . . لأن الجيشين
القرطاجنيين الآخرين كانوا له بالمرصاد ، كما كان لابد له من
الدفاع عن قرطاجنة الجديدة . ومن ثم أرسل سبيو امدادات
الى مصب نهر ابرو عند النقطة التي عبر هانيبال النهر منها
منذ عشرة سنوات لقطع طريق هاسدروبال . . .

ألا أن هاسدروبال مضى شمالا على طول نهر التاج . واثناء
زحفه تشاور مع ماجو . واتفق الاثنان على أن يذهب ماجو
الى البليار لتجنيد فرق جديدة من رماة الاسهم ثم يعبر
البحر بعد ذلك الى شمال ايطاليا حيث يتقابل اولاد هاملكار الثلاثة
ثم مضى هاسدروبال بعد ذلك الى البرنيز . وفي الطريق جند
كثيرين من انكيت وضمهم الى جيشه . واستمر في سيره
نحو الرون - ولكن الخريف كان قد جاء واصبح من العسير
عليه ان يحاول عبور جبال الالب .

وعلمت روما بمجيء هاسدروبال . . فسادها القلق .
وتطلعت الى فابيوس بلهفة املة الخلاص على يديه بعد ان
استطاع هاسدروبال أن يفلت من سبيو
ومرة أخرى شعرت روما بالخطر . . فقد أدركت انها لم
تعد تواجه عدوا واحدا هو هانيبال . وانما أصبحت تواجه
عدوين خطرين هما هانيبال وأخوه هاسدروبال .
وحان موعد الانتخابات . . فانتخب كلوديوس نير ووليفيوس
قنصلان جديدان . .

رسالة من البو :

عبر هاسدروبال جبال الالب بعد أن ذابت الثلوج (عام ٢٠٧)
بسرعة أكثر مما عبرها هانيبال . واكتسح نهر البوفانضمت
اليه عصابات قوية من ايليغوريين والغال . واستمر جيش
هاسدروبال يزحف جنوبا وشرقا كالعصار المدمر الذي
لا يبقى ولا يذر .

ثم وقع حادث واحد أثر في الموقف كله . . فعندما ترك هاسدروبال نهر البو . بعث برسالة إلى أخيه حدد له فيها مدينة امبريا على ساحل الادرياتيكي ليلتقى فيها جيشاهما . وعهد هاسدروبال إلى جماعة مكونة من ستة فرسان أربعة منهم من الغال واثنان من النوميديين بنقل رسالته المكتوبة إلى أخيه . .

وانطلقت الجماعة إلى لوسانيا لمقابلة هانيبال ولكن هانيبال كان قد اقتحم الخطوط الرومانية في هذه المدينة ليصل إلى ساحل الادرياتيكي . وكان يلف في تلك الأثناء ليجمع شمل جيشه المبعثر وينطلق شمالاً .

وحاول الرسل اللحاق به . ولكن الرومان ظفروا بهم . واستولوا على رسالة هاسدروبال فحملوها إلى خطوط نيرو في أوفيداس . .

وحينما حصل نيرو على الرسالة اتخذ قراراً خطيراً . ترك جيشه ليواجه هانيبال . ثم خرج من منطقة نفوذه ومعه ١٠٠٠ فارس مختارين وانطلق شمالاً للانضمام إلى ألي إيفيوس تلافياً إليه برسالة هاسدروبال بعد أن بعث بهذه الرسالة إلى مجلس الشيوخ مشفوعة بما اتخذ من قرار . . ولم ينتظر نيرو رد المجلس . وإنما بعث برسل يحذرون المدن والقرى الواقعة على خط الزحف لتعد له مؤناً وجيادا وعربات كان في حاجة إليها

وكان هانيبال ينتظر الرسالة التي لم تصله في أودينوس ولكنه لم يستطع أن يتحرك شمالاً حتى يعرف الطريق الذي سيسلكه هاسدروبال في زحفه إلى الجنوب . .



تجاوز هاسدروبال مدينة ريمي . فتجمع الرومان شرق

جبال أثين عند نهر ميثورد ، وعشملها عبر القرطاجيون
النهر وجدوا خطوط الرومان أمامهم . . .
كانت البلاد قريبة على هاسدروبال برغم انه كان يستصحب
بعض رجال الغال الذين يعرفون الطريق . فاضطر هاسدروبال
الى التأخر قليلا ريثما يدرس الموقف . ولعله كان ينتظر
توجيها من هانيبال

ووصل نيرو الى الخطوط الرومانية بالقرب من سنيا جاليكا
ليلا . وكان قد ارسل سلفا تحذيرا باخفاء وصوله . وتحت
جناح الليل حشر قواته بداخل خيام ليفوسو ، حتم ، لاستشعار
أحد بوصوله . . .

وتقرر أن يبدأ جيش الجمهورية الرومانية الهجوم . .
وحدثت بعض أخطاء استشف هاسدروبال منها انه يواجه
فئسلى روما ، وأن قوة العدو قد عززت ومن ثم سحب قواته
وحاول أن يتسأل بجيشه تحت جناح الظلام . وقيد بدأت
حركة الانسحاب على خير حال . . ولكن مرشديه لم يستطيعوا
الاهتداء الى الطريق فى الظلام . فاذا ما طلع الصباح استطاع
الرومان أن يقطعوا الطريق عليه . .

ولم يبق أمام هاسدروبال غير القتال . فدأرت معركة
ميتوراس بين الفريقين . وتعتبر هذه المعركة من المعارك
التي غيرت مجرى التاريخ . . . فهي آخر مرة تجمع فيها
شعوب إيطاليا ضفوفها ضد الفرق القرطاجية . .
دفع هاسدروبال ما معه فى ليلة لسحق الرومان . وكانت
الامدادات من اليجورين والغال تعبر النهر . ولكنها لم تصل
الى هاسدروبال فى الوقت المناسب .

وظلت نتيجة المعركة معلقة فى كفة الميزان ساعات طويلة
الى أن انقضى نيرو ومعه ٧٠٠٠ جندي على الغال اليجورين
رفضوا عبور الحدود لهاجمته . وبعد ان ترك نيرو ١٠٠٠٠

فارس من فرسانه للاشتباك مع الغال ، زحف بالباقيين الى
ميدان المعركة الرئيسى ..

واختار نيرو مؤخرة جيش هاسدروبال وهاجمها . وحينما
حمى وطيس القتال وبدا جيش هاسدروبال يتفكك اندفع
هاسدروبال بنفسه بين رجاله ليشحذ همهم ولكنه ما لبث
ان سقط صريعا .. وهكذا فقد القرطاجيون قائدهم .
فاستطاع الرومان ان ينكلوا بهم .

وفى تلك الليلة زحف نيرو بقواته الى الجنوب . وبعد ستة
ايام من زحف سريع لا هوادة فيه . قطع الجيش خلالها ٢١٠
ميلا - عاد نيرو بجيشه الى معسكره فى اودينوس .



حينما عاد نيرو الى معسكره على الاودينوس ، اصدرامراً
بالقاء رأس هاسدروبال « وكان قد جاء بها معه » امام نقط
حراسة العدو . وأن يمر الاسرى الافريقيون المكبلون بالسلاسل
امام انظار العدو . ثم اطلق سراح اثنين من الاسرى واوفدهما
الى هانيبال ليحدثاه بما جرى

وعلم شعب روما أن هانيبال ما كاد يتلقى رأس اخيه حتى
ترك خطوطه على اودينوس مباشرة وبعد أن اخذ الالوسانيين
معه اخلى خليج تارنتو حتى ميتا بونتم وانسحب الى تلال
بردتى . وهناك عند طرف ايطاليا بقى فى الانتظار .

ولم يقترح احد مهاجمته . لان قواد الرومان كانوا
يعلمون أن كل ما حول هانيبال اخذ فى الانهيار .

نهاية مهلكة بارسا

لاول مرة منذ غادر هانيبال قرطاجنة الجديدة . اى منذ
اثنى عشر عاما . فقد قدرته على المباداة فى الحرب العظمى .

وليس من شك في أنه دهش كثيرا لان اعداءه لم يتحركوا
ضده برغم قواتهم الضخمة الموجودة في ايطاليا .

وكان هانيبال لا يزال يحتفظ به وهو في الطرف الجنوبي
من ايطاليا به ببعض الموانئ الصغيرة في لوكري وكردتون
باقرب من معبد لاسينيان الجميل . وكان يملك ما يكفي
اجيشه من طعام وقضه

وطوال اتمام التالى كان هانيبال يتلقى معلومات متقطعة
عن تطورات الموقف . وقد زادت هذه المعلومات من قلقه .
اذ علم ان المحاصيل بدأت تتدفق على روما وان المجاعة التي
كانت تتهدد اهلها قد انتهت .

وعلم ايضا ان فيليب ملك مقدونيا أبرم صلحا مع حلفاء
روما وبذلك انتهى تحالف قرطاجنة مع سيراكيوز ومقدونيا .
وجاءت في اعقاب ذلك انباء فاجعة هزيمة القرطاجنيين في
اسبانيا . فقد اشتبك ماجو والقواد القرطاجنيون بجيوشهم
في معركة حامية عند ألبا مع القائد الروماني الشاب سيبو
الذى نقل خطوطه اثناء المعركة واستطاع سحق جناح جيش
قرطاجنة ثم التقى بفلول الجيوش في اتجاه المحيط . وهكذا
لم يتبق في أيدي القرطاجنيين غير قادش . وكان هانيبال يعلم
ان اهلها لن يشدوا ازر القرطاجنيين في الملمات

ثم جاءته انباء أخرى سيئة . لقد فتحت قادش ابوابها
للقائد الروماني الشاب .

ولكن أيبريا لم تستسلم للرومان وراحت تقاتلهم قتال
المستميت . ففي أيرجي دافعت النساء والاطفال بجائب
الرجال . بينما أحرق الرومان مدينة استابا باهلها . أما
كاستولو . وهي مسقط رأس زوجة هانيبال . فاستسلمت
للرومان بعد ان سمعت بوحشيتهم وفضاعتهم

وأخيرا هانيبال ان سيبو استطاع ان يصيح - سيادة اسبانيا

المطاع ، وان حكم اسرة بارسا هناك قد زال بعد اكثر قليلا من ثلاثين عاما .

ولكن ماجو لم يسلم بالهزيمة ، فقد عبا ٢٠٠٠ من اتباعه وركب الجميع عددا من السفن ودخلوا المضيق وحاصروا القيام بهجوم مباغت على قرطاجنة الجديدة من ناحية البحر فلما فشل الهجوم ابصر ماجو الى جزر باين لتجنيد جيش جديد طبقا للاتفاق انذى تم بينه وبين هاسدروبال . . ومن كروتون بعث هانيبال برسالة الى قرطاجنة يستحث ماجو فيها على النزول عند خليج ليجوريا ورئاسة المقاومة هناك حتى يمكن الاحتفاظ بخط البوضد الفرق الرومانية ونزل ماجو في ميناء جنوه ، ثم اختفى بين التلال . . وهكذا كان الاخوان بعيدين عن بعضهما . فماجو اسفل الالب وهانيبال في طرف ايطاليا . .

وعندما بدا العام الثالث عشر من اعوام الحرب . بدا الاعياء يستولى على الرومان . فقرروا الاستراحة واصلاح ما فسد من شئونهم . . اما سبيو النشط فقرر الاستمرار في الحرب . .

مادبة سايفاكس :

لم تبدأ معركة زاما الكبرى التي التقى سبيو فيما بهانيبال في يوم من أيام ربيع عام ٢٠٢ ؛ اذ انواقع انهم بدأوا ؛ في عقل سبيو قبل ذلك بعدة سنوات . وليس من شك في ان ماحققه سبيو في الفترة التي سبقت هذه المعركة كان تمهيدا لما حدث في وادي زاما

ففي اوائل شهر مايو ٢٠٦ - بعد موقعة اليبا بفترة قصيرة - جازف سبيو بالقيام باول محاولة للعبور الى افريقيا . أما ما حدث له حينذاك فمما لا يكاد يصدق العقل فعلى اثر انتصاره في معركة اليبا بعث سبيو الى مجلس

شيوخ روما باسلاط، وهنالك هائلة . وقال إنه قرر عبور المضيق لنقل الحرب إلى أفريقية ذاتها حتى يرغم هانيبال على الرجوع عن إيطاليا والدفاع عن قرطاجنة نفسها . وكانت هذه الفكرة قد ساورت أبوه حتى لقد بدأ مشاورات مع سايفاكس ملك نوميديا الذي كان يزود هانيبال بالفرسان المشهورين . وكان سيبو الأكبر يعتزم تحويل أسبانيا إلى قاعدة للجملة الأفريقية مثلما فعل هانيبال قبل زحفه إلى روما .

وعبر سيبو البحر . واستقبله سايفاكس بنفسه على الشاطئ عند ميناء سيجيا وفي قصر سايفاكس . فقد التقى سيبو هناك بضيف آخر قرطاجني اسمه هاسدروبال ابن جيسجو وهو شاب في مقتبل العمر كان شريكا في القيادة مع ماجو بن هاملكار في الليبال !

واقترح سايفاكس إقامة وليمة تكريما للاتفاق . وأبدي غاية سروره لأن الغريمين اجتمعا تحت سقفه . ولم يكن من شك أن سايفاكس كان في مركز حرج . فهو بحسب الوضع الذي كان قائما كان حليفا وصديقا لقرطاجنة وفي الوقت ذاته فإنه كان يهرب الرومان بعد أن سمع عن قوتهم الشيء الكثير . .

ونظرا لأن سايفاكس لم يكن راغبا في الاشتراك في الحرب فقد اقترح أن ينتهز سيبو الفرصة المتاحة ليكسب صداقة هاسدروبال . فقال سيبو إنه يسعده أن يفعل ذلك فقال سايفاكس : أذن لماذا لا تتفقا على شروط الصلح ؟ وهنا قال سيبو أن ذلك أمر مختلف . لأنه ضابط ينفذ أوامر مجلس الشيوخ والشعب الروماني الذي يملك حق إنهاء الحرب . .

وبعد رحيل سيبو قال هاسدروبال لضيفه : أن هذا الرجل أخطر عند الكلام منه في ميدان القتال

وحملوا سبيو منه وعدا من سايفاكس بان يصبح حليفا .
بينما حمل هاسدروبال وعد سايفاكس بانه سيظل صديقا
لقرطاجنة .

كان سبيو في اشد الحاجة الى فرسان افريقيا . ولهذا
استمال اليه زعيم اتفرسان الذي اشترك في القضاء على ابيه
وقاومه هو نفسه في اليبيا . وكان اسم هذا الزعيم ماسينيسا
وقد تلقى علومه في قرطاجنة واخلص للقرطاجنيين الى ان
بدا نجمهم في الافول

واستطاع سبيو ان يقوى رابطته بالشباب حينما اطلق
سراح ابن عمه الذي وقع في اسر الرومان . . كما استعان
بتأثيره الشخصي حتى استطاع ان يخطب لب ماسينيسا
ويجعله يقسم على مساعدته بمجرد نزول الجيش الروماني
في افريقيا . .

ولقد اوضح ان ماسينيسا حافظ على وعده . بينما لم
يفكر سايفاكس في المحافظة على الوعد الذي قطعه لسبيو .
ولكن ماسينيسا لم يكن اكثر من مجرد لاجيء في اسبانيا
حينذاك . بينما كان سايفاكس يتمتع بالسلطان والهيبة .
وكان الرجلان يكرهان أحدهما الآخر كراهية عميقة . .



حملة افريقيا :

استطاع سبيو ان يحصل على موافقة مجلس الشيوخ على
غزو الساحل الافريقي بعد معارضة شديدة من جانب فايوس
. . ولكن المجلس لم يمد سبيو الا بقوات قليلة وسفن
محدودة .

وراح سبيو يعد حملته على قرطاجنة برغم كل العوائق
المهولة التي كانت تعترض سبيله

واذ هجرتا قرطاجنة بالخطبة نشطت لتعبئة مواردها من الرجال توطئة لقائمة الغزاة . واقامت نقاط مراقبة متقاربة على طول الساحل . كما عززت استحكامات سورها . وراحت احواض بناء السفن الداخلية تعمل ليل نهار .

وظهرت النتائج سريعا . فسرعان ما نزل اسطول قسوى الى البحر وكان عليه ٦٠٠٠ جندي قرطاجنى و ٨٠٠ نوميدى بجيادهم . و ٧ فيلة . واستطاع هذا الاسطول ان يراوغ الاسطول الرومانى الذى كان يراقب البحر - مثلما فعل اسطول ماجو رانزل حمولته فى جنوه حيث نقل قائلده تعليمات قرطاجنة لماجو وتقضى بان يبدل قصارى جهده للانضمام الى هانيبال .

وشعر سبيو بالقلق حينما بلغه ان هانيبال نفذ الخمدول عنه . وترك ملاذه . وزحف الى لوكرى

وجمع سبيو كل ما استطاعه من سفن وجنود والانس ورحل الى لوكرى . وكانت تبعد مسافة قصيرة عن ساحل صقلية . ولكنها كانت خارج نطاق سلطته

كانت لوكرى احدى المينائين الكبيرين الباقيين . فى يد هانيبال فى براتيوم . وكانت قوة رومانية صغيرة قد استطاعت دخول المدينة باستخدام الخدع الرومانية . ونظرا لان المدينة كانت محصورة بين مرتفعين عليهما قاعدتان للدفاع . فقد استطاعت القوات الرومانية المهاجمة ان تستولى على انقلعة الجنوبية . فانسحبت الحامية انقرطاجنية الى المرتفع المقابل وبينما كان هانيبال مقبلا كالبرق من الشمال ، بعث الى الحامية القرطاجنية يامرها بالخروج للهجوم فى الليلة التى يهجم هو فيها على انقلعة التى يحتلها الرومان

وفى ذلك اليوم وصات سفن سبيو الى الميناء ونزل جنوده الى الشوارع بين المرتفعين . وذهب كشافته الى انطسريق

الشمالي . فراوا فرسانا قرطاجنيين مقبلين . وفي المساء وصل هانيبال الى الاسوار وعندما وصل وجد اسطول الرومان في الميناء وقوة رومانية كبيرة في المدينة . ونظرا لانه لم يكن قد احضر سلاام معه . فقد سحب الحامية القرطاجنية من القلعة وكر عائدا من حيث اتى . .

وكان لهذا النصر السامى اثره في اذكاء روح الحماسة في نفوس الرومان . .

الابحار الى افريقيا :

اصدر سبيو امره للاسطول بالابحار : الا انه قبل رحيله مباشرة تلقى نبا كان بمثابة لطمة قاسية . ولكنه اخفاه عن جنوده . فقد نقل اليه ان سايفاكس اعان انه مرتبط بقرطاجنة وتلقى سبيو رسالة شخصية تقول له : لا تغز افريقيا . . وبدا الترحيل . . وعند الفجر صعد سبيو على ظهر سفينة القيادة . وظل يتابع اسطوله ، المؤلف من . . . سفينة نقل و . . . ٣٠٠٠ جندي بما فيهم ملاحو السفن . النظر وهي تخرج الى عرض البحر .

ومر اسبوعان قبل ان تاتي سفينة رسل من افريقيا لتعلن ان الجيش هبط الى البر بسلام . وانه استولى على احدى المدن واخذ منها ٨٠٠٠ اسير وغنائم عظيمة . . واحضرت السفينة معها عددا من الاسرى ونفائس لتعرضها كدليل ولكن الامور لم تسر على هذا النحو الحسن . .

اسوا ساعات سبيو :

صحت افريقيا فجأة على الخطر . وهبت لتدافع عن نفسها ضد الغازي

وهكذا تجمعت قوات جرارة لمقاومة سبيو الذى كان قد
نزل بجيشه بالقرب من اتيكا . وكان يرجو أن ينتزع نصرا
سريعا في اتيكا لان ذلك يمكنه من الحصول على قاعدته منيعة
نظرا على البحر وعلى بعد مسيرة يوم واحد من سور قرطاجنة
العظيم . ولكن اتيكا اختارت المقاومة ولما لم يستطع سبيو
اقتحامها فقد اضطر الى محاصرتها .

وتبين للقائد الرومانى ان مدن الساحل معادية له . .
ومما زاد اطمين بلة ان سايفاكس عبا قواته لمساعدة هاسدروبال
بن جيسجو تحت تاثير سوبهديسبا ابنة هاسدروبال وكانت
فتاة رائعة الجمال قبل ابوها ان يزوجها من سايفاكس مقابل
تأييده لقرطاجنة بكل ما يملك من قوة .

واقبل ماسينيال الى خطوط الحصار وافضى لسبيو بهذه
المعلومات . ولم يستطع سبيو ان يحصل على أكثر من مائتى
فارس من عشرات الاف التى كان يطمع فيها .
وبدا سبيو يعاني الاهوال والمتاعب . . ثم اقبل الشتاء
واتيكا لا تزال تقاوم باصرار . بينما احتشد جيش قرطاجنى
- نوميدي في جنوب الوادى . فاضطر سبيو الى سحب
معسكره الى منطقة صحراوية شرق اتيكا . وهناك عهد الى
ملاحى الاسطول بانعمل في خطوط الحصار التى راي المحافظة
عليها .

واضطرته عواصف الشتاء العاتية الى الامتناع عن كل
اتصال بالسواحل الشمالية . كما حمته من تعرض لهجوم
اسطول قرطاجنة البحرى الذى اشتد ساعده . . وكان هذا
الاسطول هو اعظم خطر يهدد سبيو على الساحل الافريقى
ومن عجب ان شتاء عام ٢٠٤ - ٢٠٣ وجد سيدا الحرب
هانيبال وسبيو ، منعزلين كل منهما في شبيه جزيرة .
وكلاهما على ساحل عدوه . وكانت صلة كل منهما شبيه

معدومة بالاحداث التي تجرى في الاماكن الاخرى . الا ان هانيبال كان في موقف افضل لمعرفة حقيقة الموقف في البحر الابيض بصفة عامة ..

كان هانيبال يعلم ان تدي روما ٢٠ فرقة حربية و ١٦٠ سفينة حربية بخلاف حملة افريقيا .. ومن قـادش على المحيط الخارجي الى ساحل دماشيا انتشرت معسكرات الفرق الرومانية ، وبداخل هذه الحلقة اتفولاذية تقع اجزر من البليار الى صقلية

وفيما وراء نهر ابرو كانت مقاومة الاسبانيين الاخيرة الرومن توشك على الانهيار اما ماجو فلم يستطع ان يتجاوز نهر بو . ولاول مرة استطاع الرومان ان يحصواوا على راس جسر في افريقيا . ومع ان قرطاجنة كانت لا تزال امنة . الا ان الرومان اصبحوا سادة الامبراطورية البحرية وهي الامبراطورية التي كانت اسرة بارسا تهفو اليها .. وهكذا اصبح قلق هانيبال مركزا في قرطاجنة نفسها ..



عندما جاء الربيع خرج سبيو من راس الجسر عند كاسترا كورينبا قبل ان ينتهي موسم العواصف وقبل ان يتمكن اسطول قرطاجنة من الخروج الى البحر وخلال فصل الشتاء قام سبيو بخدعة غريبة .. راح يجرى معادئات صلح مع سايفاكس وهاسدروبال .. وطامت المباحثات التي كانت تجرى بواسطة الرسل . وكان السؤال انذى دارت المباحثات حوله هو : الا يمكن ان تنسحب الجيوش جميعا . وان يعود الموقف الى حانة راهنة ؟ وكان رسل سبيو من الضباط المتكبرين ولهذا اتبعت لهم فرصة

دراسة معسكرى العدو أثناء هذه المباحثات التى طالت كثيرا دون الوصول الى قرار . . وأخيرا أعلن سبيو انه لا يملك السلطة التى تتيح له الموافقة على ما طلبه سايفاكس . .

وبينما كان النوميدى الكهل يفكر فى طول تردد الرومان ذات ليلة . اندأمت النار فى معسكره ومعسكر هاسدروبال فى وقت واحد . وعندما استيقظ النوميدون والقرطاجنيون فزعون وحاولوا اطفاء النار وجدوا انفسهم يواجهون حرابه فرق سبيو . ثم اندفع فرسان ماسينيسا بداخل المعسكرات المضطربة . ولكن سايفاكس وهاسدروبال استطاعا الإفلات بجلادهم . بينما انقلد الرومان كثيرا من مخازن المؤن والغنائم والجياد من الحريق .

وهكذا استطاع سبيو ولايوس بانتهاك حرمة الهدنة ان يقصوا الافريقيين عن خط خصارهم .

وراح سبيو يستغل هذه الميزات بدون تردد أو هوادة . فقد جعل احتراق المعسكرات القرطاجنيين يتراجعون الى مدينتهم ، بينما هرب النوميدون الى سرتامقر حكم سايفاكس فى الغرب . ثم مرت ثلاثة أسابيع قبل أن يتمكن الرعماء من تقوية وتجميع اتباعهما فى الارض المشتركة التى يطاق عليها السهول الكبرى فى الجنوب . وراحت زوجة سايفاكس تحته على بدل جهد أكبر . وقد ساعده على ذلك مجيء كلتى قدموا من الساحل الغربى لتأييده . وكانوا من الجنود القدامى المحنكين . أما كيف ولماذا جاءوا الى قرطاجنة فامر لا يزال غامضا اللهم الا اذا كانوا قد عبروا البحر الى فريقيبا للانضمام الى القوات المقاتلة بعد ان انتهت الحرب فى اسبانيا .

وبدا الاشتباك مع الكلت سريعا ؛ فقد قاد سبيو احسن فرقتى مشاة لديه مع عدد ضخم من الفرسان وبعد خمسة

أيام من السير الحثيث وصل سبيو إلى مركز تعبئة الحلفاء
في السهول الكبرى

ودارت رحى معركة اشترك فيها حوالي ١٦٠٠٠ روماني
ضد ٢٠٠٠ من الحلفاء . . ودارت اندائرة على الحلفاء إذ
سحق لاويوس وماسينيسا جناحي جيش قرطاجنة . بينما
شكل المشاة الرومان انفسهم على هيئة مروحة . ثم اطبقوا
على الكلت . مثلما أخذت الرومان في كاناي ؛ ولكن الكلت
لم يحاولوا انفرار . وفضلوا ان يموتوا وسيوفهم في ايديهم .
ويقال ان سبيو اضطر الى الاستعانة بجميع فرقته قبل ان
يتمكن من القضاء عليهم . .

وكان سبيو يتمتع بميزة اخرى على عدوه : وتلك ان
مساعديه لايوس وماسينيسا كانا من اكفا انقواد . وقد عهد
الى ثانيهما بمطاردة الهاربين نحو نوميديا في اقرب ثم ارسل
لايوس في اثره لمساعدته ومراقبته في وقت واحد . . اما هو
فترك خطوط الحصار في اتيكا ، وزحف الى تونس جنوب
قرطاجنة . ولم يكن بتونس اكثر من محاجر وتجار ولكن
خليجها كان ملاذا امينا لاسطول قرطاجنة . .

وفي تونس ، رأى سبيو اكثر ما كان يخشاه . . كان
اسطول العدو يخرج من موانيه ، فانطلق سبيو بجواده ومعه
حرس صغير - لم تتبعه الفرق المقاتلة - الى كاسترا
كورنيليا . واستطاع سبيو ان يصل الى هناك في الوقت
المناسب ، اذ ما كاد يصل الى كاسترا كورنيليا حتى تحول
هو وملاحيه وجميع من استطاع ان يجمعهم من الجنود
الى مهندسين . ولما كانت السفن المقاتلة القليلة التي لديه
عاجزة عن الخروج الى عرض البحر ، فقد عمد الى اقامة
حاجز حولها من سفن النقل وصعد الجنود الى هذه
السفن ، واستعدوا للدفاع عنها . .

وأخطأ القائد القرطاجنى ، فقد بقى فى عرض البحر فى انتظار خروج أعدائه إليه ، ولكنهم لم يخرجوا طبعاً ؛ وعندما تحركت القطع البحرية انقرطاجنية بداخل شاطئ أتيكا ، فى اليوم التالى ، وجد انقرطاجنيون أنفسهم امام جدار من سفن النقل المشحونة بالجنود ، ولكن انقرطاجنيين كانوا ملاحين مهرة ؛ ولهذا انجلى المعركة عن اغراق ٦٠ سفينة رومانية . . ومن ثم اضطر سبيو الى ابقاء فترة من الوقت لملاحظة كاسترا كورنيليا . .

وفى تلك الاثناء كان ماسينيسا يكتسح ارض اجداده بسرعة الاعصار ليحطم المقاومة التى كانت تتسبب كل حول عدوه الاقطاعى سايفاكس وذلك اخلع سايفاكس نفسه واسره . وعندما اشتدت المقاومة ظهر لابيوس على المسرح وهكذا قضى على جيش سايفاكس واخذ هو اسيراً وسقطت سيرتا . .

وعندما عاد الرجال الثلاثة الى اتيكا قرر سبيو ان يرسل سايفاكس الى روما مكبلاً بالحديد وهكذا اخضع ابرومان الشاطئ المعادى . . ومنح سبيو سنده ماسينيسا تاجاً من الذهب اعترافاً بفضله . ثم نصبه ملكاً على قومه . .

قرطاجنة تستدعى ابنها :

بعد كارثة السهول الكبرى شعرت قرطاجنة بالخطر المحدق بها - وكان مجلس بايرسا منقسماً على نفسه حتى ذلك الحين بسبب تعارض الآراء . فتم فريق قوى ينادى بالسلم وابرام الصلح مع الرومان ، بينما نادى فريق ثانى بعودة هانيبال ؛ اما الفريق الثالث فقال بضرورة طرد سبيو من رأس جسر . . وراحت الجماهير تنادى فى انشوارعها باستدعاء هانيبال

وفيما بين منتصف شهر مارس ونهاية شهر يونيو ،
راحت الفرق الرومانية تكتسح طرق المناطق الداخلية بينما
اختفى جيش قرطاجنة في السهول الكبرى . . ومن سايرتا
الى نهاية نوميديا كانت صلة المدينة باقارة مقطوعة ؛ وكان
اللاجئون يتسدفقون حاملين امتعتهم ؛ ولكنهم لا يحمون
طعاما ؛ كما ان محاصيل حوض نهر باجراداس الحيوية كانت
في متناول يد العدو ؛ وبدأ الجوع يتفشى في الشوارع المكتظة .
وهكذا بدا الموقف رهيبا حالك السواد . .

وعهد مجلس قرطاجنة الى هانو - وكان احد رجال
هانيبال القدامى - يتولى قيادة الدفاع عن قرطاجنة ؛ كما
اوفد رسله الى ماجو اسفل جبال الالب والى هانيبال يامرهما
بالعودة بجيشهما الى قرطاجنة . ثم استبدل المجلس قائد
الاسطول ببشار اعظم كفاية هو هاسدروبال اتيا . . وتحت
قيادة هذا الاميرال الجديد شن الاسطول انقرطاجنى
هجومنا ناجحا أسر فيه ٦٠ سفينة نقل رومانية اضيفت الى
الاسطول القرطاجنى الذى ارسل الى هانيبال ليعيده هو
وجيشه الى قرطاجنة

أما على شاطئ ليجوريا فقد أعد ماجو الامين سفنه
بنفسه ؛ فقد كان قائدا بحريا ماهرا أيضا . . على حين ان
هانيبال لم يكن يملك غير عدد قليل من السفن الصغيرة في
ميناء كروتون ؛ فضلا عن انه لم يركب سفينة منذ سنوات
طويلة . .

وكان ذلك في شهر يوليو عام ٢٠٣ ؛ وكانت الربيع رخاء .



في شهر يوليو كان هانيبال في الانتظار . . ولكن التاريخ
لم يكشف لنا عما حدث فيما بين هذا الشهر وبين أكتوبر

الذي عبر هانيبال البحر فيه مع جيشه في طريقه الى افريقيا . . ويبدو أن معركة شسبية بدت كرك دارت رحاها في تلك الفترة وان كانت تفصيلاتها مازالت مجهولة حتى الان . . ولو ان بعض المؤرخين يقولون ان الرومان كانوا يتفاوضون مع القرطاجنيين في أمر الهدنة حينذاك ؛ ولما كانت قواتهم الرومان لا تجيز المفاوضة اثناء وجود جيش العدو في الاراضي الايطالية فقد سمح لها نيبال وماجو بالرحيل . . من ايطاليا بجيشيهما .

مهما يكن من الامر ؛ فقد قدر عدد الجيش الذي رافق هانيبال في رحيله من ايطاليا بما يتراوح بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندي ؛ ويبدو ان هذا التقدير صحيح لانه لم يكن في الامكان نقل عدد أكبر من هذا في رحلة طويلة وبغير حراسة بحرية قوية .

وواقع الامر ان اساطيل الرومان ؛ التي كان يتراوح عدد سفنها المقاتلة بين ١٤٠ و ١٦٠ سفينة كانت ترسو في اوسيتا وسردينيا وصقلية ؛ وكانت مهمة الجزء الأكبر منها حماية القوافل الجديدة التي كانت ترسل الى افريقيا حاملة المؤن والامدادات لسبيو . . ومع ذلك فقد اعترضت بعض هذه السفن القافلة التي نقلت جيش ماجو . .

وكان ماجو قد جرح في معركة اخيرة دارت رحاها على نهر بو . ثم مات اثناء الرحلة البحرية . الا أن معظم قافلته استطاعت ان تصل الى قرطاجنة في النهاية .

واستطاع هانيبال ان يصل بسلام الى تونس اي على بعد ٨٠ ميلا تقريبا جنوب جبل قرطاجنة المقدس . . وما كاد الجيش ينزل الى البر حتى زحف هانيبال به سريعا الى حزموت خارج منطقة دأوريات الرومان . وهكذا وقف هانيبال على الارض الافريقية بوجهه المظفر

بعد ٣٤ عاما . . كان اخواده قد قتلوا ولهذا تركز فيه حقد روما بعد ان استطاع عبور البحر بسلام واصبح بين قومه وعشيرته ؛ ومعه جيش يتكون من رجال اشداء عركوا القتال واجادوا فنونه وحيله . .



كان وصول هانيبال الى افريقيا ضربة قاصمة لسبيو . . صحيح انه كان يتوقع وصول هانيبال ولكنه كان يعتقد انه لن يستطيع الوصول بجيشه سالما بينما الاساطيل الرومانية الجبارة تروح وتجيء في البحر كالجراد . .

وظلت اتيكات تتحدى سبيو في ذلك الخريف ؛ كما انه فشل في الاستيلاء على بيزرطه على الخليج اتفري . وفي الوقت ذاته كانت قرطاجنة المنيعه لا تزال تعزز استحکاماتها . . بينما استبقى مساعد سبيو انقوى ؛ لاليوس ؛ في روما بعد ان رافق سيباكس الى هناك ؛ اما ماسينيسا فكان لا يزال في الغرب لاحضار الفرسان الذين كان سبيو في مجلس الحاجة اليهم .

وهكذا تخرج مركز سبيو . . وادرك انه سيهلك لا محالة اذا لم يخف ماسينيسا لنجدته او ترسل روما قوات جديدة لشد ازره .

ثم جاء الشتاء فاستحالت بذلك عمليات النقل البحري الكبرى . وظل سبيو معزولا بجيشه في ركن على الساحل الافريقي كما حدث في العام الماضي ؛ مع فارق واحد هو ان هانيبال كان معه في هذا الركن

ولكن سبيو لم يكن قائدا ممتازا فحسب ؛ وانما كان ايضا عبقرىا ملهما وسياسيا قويا . .

كان قد اتفق مع مجلس قرطاجنة في الصيف الماضي على

عقد هدنة . لانه كان بحاجة الى اعادة تنظيم قواته ؛ وقبل
المجلس عقد الهدنة لانه كان يريد كسب الوقت ريثما يصل
هانيبال من ايطاليا . وكان لقاء سيبو مع مندوبي المجلس
غريباً ؛ فقد تأمل سيبو المندوبين طويلاً وأفضى اليهم بشروطه
للصلح . . وكانت كالتالى :

اعادة جميع الاسرى واللاجئين والفارين الى روما .
سحب جيوش قرطاجنة من ايطاليا

تخلى قرطاجنة عن سردينيا وكورسيكا وصقلية ؛ وعدم
التدخل في اسبانيا . . وتسليم السفن الحربية مع احتفاظ
قرطاجنة بعشرين سفينة فقط ؛ ودفع تعويض قدره . . . ٥٠٠
طالب من الفضة « أى حوالى اربعة ملايين جنيهاً »
وكان هناك شرط ينص على أن تقوم قرطاجنة بتقسيم
الطعام للقوات الرومانية الموجودة في افريقيا أثناء الهدنة ؛
والاعتراف بماسينيسا ملكاً على بلاده

وبرغم أن سيبو قدم هذه الشروط لوفد قرطاجنة بدون
الرجوع الى مجلس الشيوخ في روما إلا أنه يبدو أنه كان
قد أحسن التكهن بالحوادث التى كان المستقبل يستمخض
عنها ؛ وخلاصتها أن قرطاجنة لن تدمر ؛ وأن روما ستصبح
امبراطورة البحار . .

وحدد سيبو لوفد القرطاجنى ثلاثة أيام للبت في شروطه .
ولما كانت أسرة بايرسا هى صاحبة الكلمة في المجلس ؛ وكان
أقطابها يوافقون على إبرام الصلح ؛ فقد وافق المجلس على
إيفاد مندوبين الى روما لإبرام الصلح . .

وكان من الطبيعى أن يشعر مجلس شيوخ روما بالحيرة
عند وصول مندوبى قرطاجنة وشروط الصلح التى وضعها
سيبو القائد المظفر اللمع .

ودارت مناقشات حامية في المجلس ؛ وكان الاتجاه البارز
هو رفض الصلح . .

وفي تلك الاثناء عرف نبا اختفاء هانيبال وماجر وقواتهما
من ايطاليا . فثار ذلك ريبة مجلس شيوخ روما ؛ وبدأت
المناقشات والجدل من جديد ..

واضطر المجلس الى احوالة الموضوع على المجالس الشعبية؛
ولما كانت هذه المجالس تؤيد سبيو بكل قوتها فقد طالبت
بتقديم كل عون ومساعدة له ..

وأرسلت روما اساطيل وجنود ومؤن جديدة الى سبيو
في افريقيا ..

وحدث ان هبت عاصفة جعلت السفن الرومانية المحملة
بالمؤن تجنح نحو قرطاجنة ؛ فراها القرطاجنيون الجائعون؛
فراحوا يطالبون مجاسمهم بارسال الاسطول للاستيلاء على
هذه السفن .. وقد كان ..

والواقع ان روحا جديدة دبّت في انقرطاجنيين بعد ان
علموا بوصول هانيبال وجيشه
وفي كاسترا كورينليا بذل سبيو قصارى جهده ليمد الهمدنة
اياما قليلة أخرى

وظل الموقف مائلا الى ان جاء الربيع .. فارسل سبيو
الى روما يطالبها بسرعة ارسال قوات جديدة ؛ وبعث
يستحث ماسينيسا على العودة . وبالاخص لانه علم ان
أبناء سايفاكس يحشدون الفرسان توطئة للانضمام الى
هانيبال ؛ وان الانجيوش القرطاجنية قد اتحدت .
وفي أحد أيام الصيف الاوّل ؛ قرر سبيو ألا ينتظر اكثر
من ذلك ..

زحف بالجزء الاكبر من جيشه على نهر باجر داس بعيدا
عن قاعدته في اتيكيا وعن تاييد الاسطول في البحر .. وفي كل
يوم كان يبعث بالرسل غربا ليحثوا ماسينيسا على العودة
بالفرسان المطلبين ..

واستمر سبيو يزحف جنوبا بغرب متتبعا النهر بقصد
الامكان ؛ وكان يحرق القرى في زحفه ؛ ويدمر المحاصيل ؛
ويأسر السكان . .

وأدت هذه التصرفات الوحشية الى استغاثة القرى
الأخرى بهانيبال .

وكان هانيبال يعلم ان سبيو لا يملك فرسانا نوحيديين
حتى الان . . ولكنه هو نفسه - أي هانيبال - لم يكن
مستعدا حينذاك للاقاة سبيو . .

وبرغم هذا خف هانيبال لتلبية النداء بلا ابطاء
وزحف طابور جيشه الطويل غربا وخلفه ٨٠ فيلا
كان هانيبال يزحف بسرعة تقطع الطريق على سبيو
ومفاجاته قبل ان ينضم ماسينيسا اليه . . وكان عدد رجال
جيشه ٣٧٠٠٠ رجل ولكنهم لم يكونوا جيشا قوى
التماسك . .

ومن سخرية القدر ان هانيبال كان يتقدم في بلاد لم تسبق
أه رؤيتها منذ كان في التاسعة من عمره ، أما الرومان فكانوا
يزحفون في منطقة سبق لهم ان عرفوها .
مركة زاما :

وهنا لا بد لنا من وقفه قصيرة لتأمل الخصمين . .
كان هانيبال سيد الاستراتيجية بلا منازع ، يمتاز بخطورته
الشديدة فوق الارض التي يختارها ؛ كما امتياز بها لم
يستطعه غيره وهو قدرته التي لا تبارى على توجيه أشد
ضرباتهِ الى أضعف نقطة في جيش العدو . والعجيب في
الامر أن احدا لم يكن ليستطيع ان يتكهن بتكتيك هانيبال
إذا استطاع ان يختار مكان المعركة

أما سبيو فامتاز بالحدس في الاستعداد للقتال ، والعنف
في العمل . ولكنه كان يعتمد على تكتيك واحد ؛ وهو تحريك

قلب الجيش ايان المعركة وتشسكيه على هيئة مروحة
للأحاطة بالعدو

كان الوادي الجنوبي لا يزال مخضرا بعد سقوط امطار
الشتاء السابق ، ولعل سبيو عرف باقتراب هانيبال لأول
مرة من الجواسيس انقرطاجنيين الذين قبض الرومان عليهم
بالقرب من قرية تدعى ناراجارا . ومن المفجيب ان سبيو
جعل هؤلاء الجواسيس يروون كل شيء ثم اطلق سراحهم
ليعودوا الى المعسكر القرطاجني بالقرب من قرية تدعى زاما
وما كاد سبيو يعرف ان هانيبال يعمل على قطع خط
زحفه حتى استدار بطوابيره الى الشرق أي في اتجاه العدو
الى ان عبر نهرا صغيرا لم تكن حرارة شمس الصيف قد
جففته بعد ، وهناك دهش سبيو حين جاءه رسول قرطاجني
قال له ان هانيبال يريد ان يتحدث اليه شخصيا في هدنة
مؤقته بين الخطوط ..

ولم يكن سبيو يعرف حينذاك اين يوجد جيش قرطاجنة
لكنه كان يعلم ان جيشه هو يسير في سهل مكشوف بعيدا
جدا عن قاعدته محروما تماما من الفرسان
وبينما كان سبيو يفكر في الامر ، ظهرت طلائع ماسينيسا
على الافق ..

وكان مع ماسينيسا ٦٠٠٠ فارس و ٤٠٠٠ من المشاة .

وادرک سبيو انه اصبح في مركز ممتاز .. فاطلق سراح
الرسول بعد ان ابلغه انه على استعداد لمقابلة هانيبال ..
ومن معسكر القرطاجنيين فوق مرتفع قليل الانحدار
على الجانب الاخر من الوادي ، خرج هانيبال متمطيا صهوة
جواده ويحيط به حرس من الخيالة . . ولكنه سرعان
ما ترجل عن جواده وسار لملاقاة سبيو ومعه مترجم يرغب انه

كان يفهم اللاتينية ويجيد التحدث بها . . الا انه يبدو ان القائدين رايا الاستعانة بالترجمين حتى تتاح لهما فرصة التفكير في الاجابة اثناء قيام المترجمين بعملية الترجمة . .

وعندما التقيا ، لزم كلاهما انصمت . . كان هانيبال اكبر سنا ، واطول قامة من سبيو وقد غطى عينه الضريبة بعصابة ولهذا ادار راسه قليلا حتى يستطيع اجادة الرؤية .

ووقف سبيو حاسر الراس ، يحمل خوذته على ذراعه ، وهو منتصب القامة . .

وبعد فترة طويلة تكلم هانيبال . .
وقال المترجم لسبيو : لقد اصبحت نجاحا كبيرا ايها القنصل الروماني . . ولكنك كنت سعيد الحظ ايضا وانتظر سبيو . .

ومضى هانيبال يقول : هل خطر ببالك ان روما ستفيد شيئا من الاستمرار في هذه الحرب ؟ اعنى هل ستفيد اكثر مما حصلت عليه حتى الان ؟ الا تظن انك اذا هزمت هنا فسيضيع جيشك ؟

وبعد ان فكر هانيبال لحظة استطرد ما كنت لا اقترح ابرام الصلح او لا اعتقادي انه يفيد الطرفين وانتظر سبيو . . كان من الواضح ان هانيبال سمع عن شروط سبيو لابرام الصلح ، وعندما تكلم سال هانيبال عما يريد ان يعرضه غير الشروط الرومانية

فقال هانيبال ان قرطاجنة ستتخلى عن جميع جزر البحر بما فيها الجزر الصغيرة الواقعة بين ايطاليا وافريقيا (كمجموعة جزر مالطة) واسسبانيا . ولكنه لم يشي الى

تسليم السفن الحربية او تسليم الاسرى والفارين الذين انضموا الى جيش قرطاجنة .

واجاب سبيو انه لا يستطيع ان يقبل اية شروط غير تلك التي اقترتها حكومة بلاده .

وهنا حيا الرجلان احدهما الآخر وافترقا . .

لم يكن من سبيل لتفاهم انقائدين بعد ان ابدى كل منهما تمسكا بموقفه .

ولم يبق امامهما غير استئناف القتال الى ان يقضى احدهما على الآخر في النهاية

وفي تلك الليلة اعد سبيو جيشه للقتال . . وضع ماسينيسا وفرسانه في احد جناحي الجيش ، ولاليوس وفرسانه في الجناح الآخر ؛ وتولى هو قيادة القلب . . مع النظر بعين الاعتبار لليلة

واما هانيبال فراح ينتقل من وحدة الى وحدة ؛ ويتحدث الى رجاله . ثم اصدر تعليماته للضباط ؛ وامل هانو وحده ؛ ذلك المقاتل القديم ؛ هو الذي علم ما معنى هذه التعليمات

ولم ينم هانيبال في تلك الليلة لان اول عنصر من عناصر هجومه بدأ يستعد للخروج الى المعركة مع ساعات الليل الاخيرة .

ووقف هانيبال فوق ربوة عالية ؛ وراح يراقب الفيلة وهي تتحرك مع طلائع الجيش . . ثم تحركت بعدها قوات ماجو من الليجوريين والغال والمقاربة وبعض الاسبانيين

ورأى الرسل الذين كانوا يقفون مع هانيبال فوق الربوة ما كان يحدث في ضوء انفجر البهائم وكانت نظرة واحدة تكفى للحكم بان هذا الجيش لم يكن يشكل جيش هانيبال المتناسق المعروف الذي دوخ الجيوش الرومانية في هزيمته . .

كان من الواضح ان جيش قرطاجنة يتكون من ثلاث وحدات منفصلة . ستقاتل كل وحدة منها مستقلة عن الآخرين بناء على اوامر ضباطها . . وامامها جميعا تقدمت الفيلة القوية

واحتفظ هانيبال بالتشكيل الاخير ، وهو جيشه من البروتيوم . ولكنه ما لبث ان انضم اليه بنفسه ليتولى قيادته نظرا لان اعتماده كله كان مركزا في هذا التشكيل . . وكان كل امله ان يظل امر هذا التشكيل خافيا على الرومان حتى يستطيع ان يستخدمه في لحظات المعركة الحرجة .



وهكذا شهد ميدان زانما ثلاث معارك منفصلة بدلا من معركة واحدة

فبالرغم من تحرك هانيبال في وقت مبكر ، فان الرومان كانوا بدورهم قد تحركوا نحوه في خطى بطيئة وقد تماسكت وحداتهم كقطع الالة الميكانيكية التي تكمل احداها الاخرى وتقدم خط المشاة في تشكيل انصفوف الثلاثة المعتاد . . المقدمة ، ثم حملة الرماح ، ثم المؤخرة . .

ثم تقدمت الكتلة المسلحة الى منتصف الوادي حيث تقابل بالامس هانيبال وسببو ليتحدثا

وفجأة ، انطلقت الابواق والعلبول الرومانية في لحظة واحدة فاثارت الفزع بين الفيلة التي كانت تتقدم صفوف القرطاجنيين .

واندفعت الفيلة نحو صفوف الرومان . ولكن سببو كان قد ترك فراغا بين هذه الصفوف فاقترحت الفيلة وعندئذ انهالت الصواريخ عليها ، فاضطرت الى العودة الى صفوف القرطاجنيين وقد تملكها الهياج الشديد . . بينما استمر بعضها يركض حتى ابتعد تماما عن ميدان المعركة .

وعندئذ أصدر سبيو أمره بجناحي جيشه الراكبين بالتقدم
وكان سلاح فرسان هانيبال قليلا فهم يستطع وقف زحف
فرسان ماسينيسا ولاليوس المدرين . . وأشد ضغط
فرسان روما حتى سحق فرسان قرطاجنة ، وسرعان
ما انفصل الفرسان عن الجيشين ؛ فريق هارب ؛ والاخر
مطارد له حتى غاب الفريقان عن الأنظار

وفي تلك الاثناء كان الليجوريون والغال قد التحموا في
القتال مع الخط الاول في جيش الرومان وقد تشبث رجال
ماجو بموقفهم في عناد اضطر الرومان الى انكف عن التقدم
بعض الوقت ؛ ولكنهم ما لبثوا ان استأنفوا الزحف
بعد ان اكتمل القرطاجني الثاني . ثم يتقدم بشدة اذ
الليجوريين والغال الذين تملكهم الاعياء وذلك طبقا لتعليمات
هانيبال ؛ وعندما تراجع الاحياء من التشكيل الاول . الفوا
القرطاجنيين يصوبون اسلحتهم اليهم . فاصيب الليجوريون
والغال بالجنون واشتبكوا مع القرطاجنيين في قتال وحشي
وفي نفس اللحظة تقدم الخط الروماني الى جيش هانيبال
الثاني . . أي الكتل القرطاجنية . وكان هذا الجيش يتكون من
مجندين قرطاجنيين جدد بقيادة هاو الكهل . وقد افزعهم
تقهقر رجال ماجو . . وتقدم الرومان المساحين بالسيف
والدروع ، وما لبث ان انضم حملة الرماح اليهم ؛ ودارت
بين الفريقين وحى معركة رهيبة واستطاع القرطاجنيون
ان يوقفوا تقدم الرومان المدرين . . وعندما كاد انهيار ان
ينتصف اضطر القرطاجنيون الى التراجع وقد اصيب
جناحاهما بخسائر جسيمة . بينما غطيت الارض بجثث
القتلى والجرحى . .

وخلف هؤلاء القتلى ، وقف جيش هانيبال الثالث . .
الجنود الايطاليون القدامى . .

وأخيرا وقف الليجوريون وجها لوجه أمام الفرق الرومانية
المنسدة

ولم يكن في استطاعة سبيو أن يتراجع . . كان يقف على
بعد ثلثمائة خطوة من المعركة ويراقب ما يحدث عن كثب . .
ولاحظ سبيو أن هانيبال يبيت أمرا . . ولم يكن فرسانه
قد عادوا بعد من مطاردة فرسان هانيبال . . فانتظر سبيو
ريثما التقطت قواته أنفاسها وحصلت على الماء ثم عاد
يصدر أوامر سريعة . فانتقل حملة الرماح إلى أحد الجانبين
وانتقل طابور المؤخرة إلى الجانب الآخر . .

وبذلك طال الخط الروماني حتى فاق تشكيل هانيبال
وأستأنف الرومان التقدم . .

وانقض جناحا الخط الروماني بعنف بالغ على جناحي
هانيبال الضعيفين . وكانت مجازفة من سبيو ، إلا أن
النجدة هبطت عليه من السماء حينما عاد فرسانه فجأة بقيادة
ماسينيسا ولاليوس وانقض فرسان الرومان على مؤخرة
جيش هانيبال

ومع ذلك ظل القرطاجنيون يقاتلون بعنف ووحشية ذهبوا
مضرب الامثال . .

إلا أن الطاقة البشرية حدودا فان القرطاجنيين لم يستطيعوا
الصمود أمام الرومان بغير تأييد من الفرسان

وهكذا انتصر سبيو في كاناي أخرى . . ولكنه كان نصرا
غالي الثمن (فقد صرح سبيو فيما بعد بأن هانيبال ، فعل
كل ما يستطيع رجل واحد أن يفعله في معركة زاما)

وترك هانيبال ميدان المعركة . وانطلق إلى الشرق بلا

توقف ، إلى حضرموت التي تبعد ٩٠ ميلا ؛ وهناك وجد
قوة في انتظاره ومعها المؤن ؛ وهكذا جنب قراره مدينته مذلة
تسليمه للعدو . .

كان يعلم انه خسر الحرب نهائيا بعد أن فقد الجيش الذي ظل يقوده من نصر الى نصر ستة عشر عاما وأن أية محاولة للدفاع عن قرطاجنة نفسها بغير جيش معناها حصار المدينة وهلاك أهلها جوعا

ومن حضر موت، بعث هانيبال برسالة الى مدينة قرطاجنة قال فيها : « لقد خسرنا أكثر من معركة .. خسرنا الحرب ، فاقبلوا شروط الصلح المعروضة عليكم »

ومن روما جاءت جيوش جديدة وعلى رأسها قنصل جدد ؛ ولكن سبيو كان قد حقق النصر النهائي ؛ ولم يكن يرغب في حصار قرطاجنة لانه لم يكن راغبا في تدميرها أو في استعباد شعبها ولهذا اكتفى بما حققه من نصر وعاد الى إيطاليا . ولم تدخل روما على شروط الصلح السابقة غير تعديلات بسيطة أصر عليها مجلس الشيوخ . وتنحصر في تسليم جميع سفن قرطاجنة الحربية ما عدا عشر فقط .. وتسليم جميع الفيلة ؛ وعدم اندخول في أية حرب بافريقيا قبل الحصول سافا على موافقة روما ودفع ١٠٠٠٠٠٠٠ طالن من الفضة خلال ٥٠ سنة ؛ وأن تصبح قرطاجنة صديقة روما وحليفها وقبلت قرطاجنة هذه الشروط ..

واستخدم سبيو نفوذه للابقاء على حق المدينة الكبرى في الحكم الذاتي ؛ وعدم الاضرار بالقرطاجنيين أنفسهم ؛ أو التدخل في حياتهم المدنية ..

ولم يطلب الرومان من القرطاجنيين تسليم هانيبال وفي مقابل ذلك طالب الرومان اعتراف قرطاجنة بما سينسبها ملكا على النوميديين

وعندما عاد سبيو الى روما في العام التالي (٢٠١) أحضر معه ثروة قدرت بأكثر من ١٢٣٠٠٠٠٠٠ جنيه من الفضة .. وتجمع الناس في كل بقعة أتحيته تحية الفزاة الفاتحين وبرغم ما اعتمل في صدور حساد سبيو ؛ فقد اتخذ مجلس الشيوخ قرارا باطلاق لقب « المواطن » الاول على سبيو

الفصل السابع

المطاردة نحو الشرق



عندما دخل هانيبال قرطاجنة في عام ٢٠٢ ، فإنه دخل مدينة
تكاد تكون غريبة عليه .

وكان هانيبال قد ترك من تبقىوا معه من جنود في مكبات
محترقات عندما استدعاه مجلس مدينة قرطاجنة ، فأُسرع
بالحضور إلى المدينة التي لم تشهد شيئاً من هول الحرب .

واضطر هانيبال أن يلعب دوراً مزدوجاً مرة أخرى ، فقد
كان سكان قرطاجنة يتطلعون إليه باعتباره قائدهم القادر على
إنيان معجزة تحررهم من شروط الصالح التي فرضت عليهم .

واستطاع هانيبال إقناع مجلس المدينة بقبول شروط الصالح .
ولكن بعض الأعضاء ذوى التفوذ ناصبوه العداء .

وبعد خمسة أشهر ، أى فى أوائل عام ٢٠١ ، تبادل الرومان والقرطاجنيون الأسرى ودفعت قرطاجنة تكاليف جيش سيبيو ، ووقعت المعاهدة . وأقرها مجلس شيوخ روما . وعلى أثر ذلك رحلت الجيوش والأساطيل الرومانية عائدة إلى روما .

وكانت نقطة طيبة من سيبيو حينما قال : إننى أترك لقرطاجنة الحدود التى كانت لها عندما نزلت أنا إلى البر لأول مرة ..

وحان موعد دفع القسط الأول من الغرامة وقدره ١٦٠٠٠ رطل من الفضة . ولم تكن قرطاجنة تملك هذا القدر من الفضة بعد أن انقطعت واردات قرطاجنة من هذا المعدن من جبال أسبانيا . وهنا لم يجد المجلس مفرأ من فرض ضرائب غرامة أثارت ثائرة الكثيرين وجعلتهم يضررون الشر لهانيبال ..

وقام هانيبال بحملة اصلاحية كبيرة كملت بالنجاح ، ولكنها أكسبته عدااء الارستقراطيين .

ولم يعد الأمر مجرد معارضة لقطاع أسرة بارسا فى المجلس وإنما أصبحت المسألة مسألة خصومة عنيفة لديكتاتور .. ومن ثم أوفد أعداءه الجدد رسلا إلى مجلس شيوخ روما ليبلغوه إنه بينما

.. يسمى معظم أعضاء مجلس قرطاجنة للمحافظة على صداقة روما فإن
هانيبال يسمى بطريقة السرية المعهودة على الاستعداد لاستئناف
نزاعه الطويل مع المدينة التي أذلت عنقه ..

وصدق مجلس شيوخ روما القصة .. وفي عام ١٩٥ أوفد
المجلس لجنة للتحقيق في الشئون الأفريقية وتوجيه الاتهام
لهانيبال ..

هانيبال يركب البحر :

من عجب أن الصالح الذي أبرم في عام ٢٠١ وجد روما
الظافرة غارقة في المنازعات بينما أصبحت قرطاجنة المهزومة
حرة في تدبير شئونها ..

ولاشك في أن الجزء الأكبر في هذا التناقض كان مرجعه
إلى الحرب الغريبة التي شنها هانيبال .. ففي غرب أمبراطورية
روما الجديدة . استمر الأسبانيون في المقاومة والتمرد برغم
الاحكام العرفية ، وفي الشمال راح الغال يكافحون للمحافظة على
حدودهم القديمة .

بينما أخذت عصابات الليجوريين المتوحشين تعيث في الأرض

فساداً . وبما زاد الطين بلة أن ماجو كان قد ترك بعض ضباطه واسمه هاملكار في إيطاليا ، فتولى هذا الضابط قيادة قوات المقاومة وعندما طالب مجلس شيوخ روما مجلس قرطاجنة باستدعاء هذا الضابط أجاب المجلس بأنه لا يملك أية وسيلة لاستدعائه ..

وعندما عاد الأسرى الرومان من قرطاجنة ، وكان بينهم أعضاء من مجلس الشيوخ راحوا يهولون في وصف حياة البذخ التي يحياها القرطاجنيون ، مما أثار ثائرة الرومان لأن الشعب الروماني كان يعاني من شظف العيش آنذاك .

ولما كان معظم تجارة الأسطول قد استخدموا في فلاحه الأرض أول الأمر ، تم استدعوا ثانية للعمل في الأسطول ، فقد قلت الأيدي العاملة ولم يعد مفر من استيراد الأرقاء للحلول محل الملاحين الذين أعيدوا إلى الأسطول . وكانت الوسيلة الوحيدة لذلك هي شراء الأرقاء من التجار ، أو شن حملة جديدة لجمع الأرقاء ..

وكانت أول خطوة طائشة أقدم مجلس شيوخ روما عليها

هي إرسال حملة لتأديب فيليب الخامس الذي تحالف مع هانيبال
بعد معركة كاناي . .

وعارضت المجالس الشعبية الحرب المقدونية بشدة . نظراً
لأن المواطن الأول سديو لم يوافق عليها . .

ولكن مجلس الشيوخ ضرب بهذه المعارضة عرض الأفق ،
وأرسل حملة مزودة بالفيلة التي أرسلت من إفريقيا لتأديب
مقدونيا . .

ومن الغريب أن سديو لزم الجلود الثام خلال هذه السنوات
الخارجية . وقد يكون التعامل الوحيد لذلك إنه كان مجهداً بعد حرب
طاحنة دامت عشر سنوات أمام خصم عنيد هو هانيبال .

وكان سديو لا يزال راكناً للجمود عندما جاءت الأنباء
عام ١٩٧ بحصول الرومان على انتصار عسكري في اليونان على
جيش فيليب ، مقترنة بحدوث ثورة كبرى في إسبانيا فقد تمرد
سكان إسبانيا على الضباط الرومان ، وعندما طالب الفائد الرومان
في شمال أورو قبائل التروتان ومن معهم من السكات بتسليم أسلحتهم
رفضوا ذلك . .

كان شبح هانيبال لا يزال يحاق فوق اسبانيا ، . ولهذا استمر
الاسبانيون في العصيان ..

وفي أوائل عام ١٩٥ ، وبينما الموقف يغلي على النحو الذي بيناه ،
وصل إلى روما وقد النبلاء القرطاجنيين الذي جاء ليقدم شكوى
ضد الطاغية هانيبال ، فأوفد مجلس الشيوخ لجنة للتحقيق كما أسلفنا .
واحتج سببوا على هذا الاجراء العجيب بقوله : ليس من حق
روما أن تتدخل في شئون قرطاجنة الداخلية ، أو أن تقف إلى
جانب من يكيلون الاتهامات لهانيبال :
ولكن المجلس أصر على قراره . فسافرت اللجنة ولكنها
لم تجد هانيبال في قرطاجنة .

* * *

والواقع أن هانيبال كان في قرطاجنة يوم نزلت البعثة الرومانية
إلى البر ، واستقبلت بأجلى مظاهر الترحيب ..
وفي الوقت ذاته ظهر هانيبال في شوارع قطاع آخر من المدينة
كالعادة . وفي المساء غادر قصره وانطلق في اتجاه إحدى بوابات
المدينة . وهناك ترك خادمية وامتطى صهوة الجواد الذي كان
في انتظاره هناك . ثم غادر المدينة وحيداً ..

وفي تلك الليلة ، وفي اليوم الذي أعقها قطع هانيبال ، ١٤ ميلا
إلى إحدى فيلاته على الساحل الشرقي تحت حصر موت . وكان

في انتظاره أمام الفيلا من ناحية البحر زورق سريع وضعت فيه ثيابه وأمواله الشخصية من ذهب وفضة . . وفي التوأبحر الزورق ناحية الشرق . .

وأدهش فرار هانيبال مدينة قرطاجنة ، وتجمع الشعب في بارسا لمعرفة أنباء معبوده . . ولم تستطع اللجنة الرومانية أن تفعل شيئاً سوى أن تقول، إن فرار هانيبال أثبت لها أنه كان يتآمر مع فيليب . ولم يذكر هانيبال سبب رحيله عن قرطاجنة ، ولعله ضاق ذرعاً بخصومه النبلاء له ، وليس من شك في أنه سمع بنياً إيفاد روما بعثة التحقيق فلم يشأ أن يقف موقف الاتهام . وبالتالي لم يشأ أن يجعل شعب قرطاجنة ينشق على نفسه ، وأثر الرحيل . وانتهى المطاف بهانيبال في مسقط رأس أسرته ؛ تايير .

عروش الشرق الثلاثة :

بمجرد أن مرت سفينته بتلال كريت ألقي هانيبال نفسه في بحر هادئ مرصع بالجزر ، لا تكتسحه الرياح ولا الزوابع التي ألفها في غرب البحر الأبيض . وكان سكان هذه المنطقة مختلفين أيضاً عن سكان الغرب، فقد كانت المدن القديمة . وكانت تايير نفسها مدينة جمة النشاط فوق جزيرتها الصغيرة ، وقد تحول سكانها إلى شعب من التجار لا يبدون أى اهتمام بالسياسة إلا من حيث تأثيرها على تبادل النقد أو اتصالها به .

وحيا شعب تاير هانيبال بدهشة بالغة ، فقد كان اسمه من
الأساطير التي شاعت على الساحل الشرقى . وبعد إقامة قصيرة ،
عبر هانيبال إلى الشاطئ ، وهنا نزل في موطن الفينيقيين أرض
كنعان ، وإلى اليسار كانت الأراضي الحمراء ذات الذكريات القديمة
وكان الناس يرحبون بهانيبال أينما حل .. وامتطى جوادا سار به
تحت مرتفعات لبنان الداكنة إلى نهر الأورنت ثم إلى بوابة
انتيوخ . .

وما كاد يهل بطلعته في انتيوخ حتى تجمع الناس للترحيب به
كهدية بعثتها لهم الآلهة . ولمس أحد أبناء الملك الأرض أمامه ،
ورافقه عازفو الزمار إلى القصر الذي أعد له .

نزل هانيبال في بلاط انتيوخس العظيم ، أقوى ملوك العالم
الهلينى الشرقى . .

كانت انتيوخ من المدن العظيمة التي انشأها الاسكندر المقدونى
الذى مات قبل ذلك بقرن وربع وقد تجمعت فيها ثقافة الاغريق
وحكمة آسيا ، فقطعت شوطاً بعيداً في مضمار العلوم والفنون .
وكان الاسكندر قد خاف ثلاث ممالك سياسية بعد انتهاء
امبراطوريته ، إحداهما في مصر والأخرى في سوريا — فارس ،

وإلى اليسار ملكة مقدونيا نفسها وما يتبعها من مدن يونانية هزيلة
وكانت الممالك الثلاث لاتزال متشابهة من وجوه كثيرة - في اقتصادها
ومركزيتها الحضرية وزيادة ثرائها . وكانت ثلاثتها تتكلم اللغة
اليونانية ، وتتنافس على التوسع في نشاطها التجاري مما أدى إلى
ارتفاع مستوى معيشة طبقاتها العليا ارتفاعاً كبيراً . وكانت هذه
الممالك الثلاث تشترك في حروب محدودة وبالأخص عند الحدود
المائية بالقرب من فلسطين وعبر مضيق الدردنيل وبين مدن
اليونان المتنافسة .

وما كاد هانيبال يصل إلى هذه المنطقة حتى فطن إلى كل شئ
فيها ، فبالإضافة إلى هذه الممالك الثلاث الكبرى ، كانت الجزر
الكبرى مثل رودس تحتفظ بأساطيل بحرية خاصة ، بينما احتفظ
سكان الجبال أمثال السكت والبيزنطيين في آسيا الصغرى بعزاتهم
وأدرك هانيبال بثاقب بصيرته أن انيتوخس الثالث ملك
سوريا - فارس هو أحسن حليف لقرطاجنة يمكن اختياره .
فبعد عشر سنوات عاد هذا الملك الشاب من غزوة عظيمة اكتسح
فيها آسيا حتى وصل إلى الجبل الذي يفصل المنطقة عن الهند .
واحضر معه قطيعاً كبيراً من فيلة الحرب ، وجياداً سريعة ، وعدداً

لا يحصى من الفرسان .. وهكذا توفرت لانتيوخس الموارد التي
كان تعوز هانيبال دائماً .

ولما كان انتيوخس طموحاً . فقد كان يتطلع للاستيلاء على
الدردنيل فيما وراء آسيا الصغرى ، وإلى اليونان .. ولكنه رأى
الرومان يسيطرون على منطقة اليونان ..

وهنا أبدى هانيبال استعدادَه لخدمة انتيوخس ضد روما .
وكان الاثنان قد تراسلا قبل مجئ هانيبال .. وفي حديقة قصر
المالك تبادل الاثنان الحديث ..

وكان هذا المكان هو آخر ما كان الرومان يرغبون في أن
يظهر هانيبال فيه ..



لما اشتدت حاجة روما إلى الأيدي العاملة جردت حملتها على
مقدونيا، وبعد أن أحرزت النصر بدأت تتطلع إلى الشرق وكنوزه
ولكنها سرعان ما تبين أن انتيوخس يقف في طريق توسعها .
أما ما هو السبب الذي تذرعه به مجلس شيوخ روما لخلق سوء
تفاهم مع الملك الآسيوي فقير معروف . فقد تدمرت ردوس

وبرجامم من أن وجود انتيوخس في آسيا الصغرى معناه أنه
سيستخدم آسيا الصغرى قاعدة لغزو إيطاليا، وهي نفس الشكوى
التي تذرعت بها المدينتان الصغيرتان ضد فيليب .

وانتهزت روما الفرصة . . وبالأخص بعد أن تأكدت من
متانة موقفها في اليونان ، ذلك أن القائد الروماني فلامينوس الذي
هزم فيليب انتهج سياسة سلبو فرفض اذلال مقدونيا بعد القضاء
على جيشها . وألقى خطاباً منح فيه جميع المدن اليونانية حرية كاملة
وقرن هذا التصريح بسحب الجيش الروماني من الأراضي الرومانية
(والواقع أنه لم يفعل ذلك مختاراً وإنما لأن الحاجة مست إلى
الاستعانة بهؤلاء الجنود في زراعة أراضي وادي نهر بو) . وكان
لهذا الاجراء أثره في نفوس اليونان فقدموا له جميع الجنود الذين
سبق أن أسرهم هانيبال . وهكذا خلف انسحاب فلامينوس فراغاً
يملاؤه أى قادم . وكان من الواضح أن هذا القادم هو انتيوخس .

كانت خدعة دبلوماسية ممتازة خدعت اليونانيين أكثر من
غيرهم . فقد أسكرهم الحكم الذاتي تحت حماية الرومان الذين يملكون
أعظم قوة حربية ؛ ومن الغريب أن أول من دعا انتيوخس
للمجيء هم الاتيوليون الذين كانوا أول حلفاء الجمهورية النائية ..

كانت روعة الفخ الذي نصبه فلا مينوس ومجلس الشيوخ (أثناء
انهما كهما في جبهة نهر بو) كامنة في أنه كان نفياً غير منظور . .
فقد جمع انتيوخس قواته وتهيأ لغزو اليونان . وهو لا يجد ذريعة
يتعامل بها لهذا الغزو . . وهذا هو ما كان يترقبه الرومان .
وفطن هانيبال لهذا الفخ ، فقد سبق أن رآه في أسبانيا . .
وكما كان الحال في أسبانيا ، فطن هانيبال لوسائل الدفاع الثلاث
ضد تقدم الرومان : التحالف وهو في هذه المرة مع الدول الهلينية
وأسطول لحماية الطرق البحرية ، وحملة ضد إيطاليا ذاتها . . وليس
من شك في أن هذه الخطة كانت تصادف نجاحاً منذ أربع وعشرين
سنة مضت لولا ما كان ينقص قرطاجنة من أسطول بحري . . والآن
كان ينبغي تنفيذ هذه الحركة سريعاً في الطرف الآخر من البحر
الأبيض إذا أريد لها النجاح . أي أنه كان على انتيوخس أن
يضرب بكل قوة في الوقت الذي تشتبك روما فيه في قتال عنيف
مع الغال على نهر بو ، وتتأجج فيه ثورة الأسبان فيما وراء نهر ابرو .
وعرض هانيبال على انتيوخس قيادة الحملة . وطالب بقوة
مكونة من ١٠٠ سفينة نقل و ١٠٠٠٠ جندي و ١٠٠٠٠ جواد
على أن يذهب بالجميع إلى قرطاجنة ثم يمضي للانقضاض على
إيطاليا بينما يتمم انتيوخس تحالفه الهليني في الشرق . .

وكان انتيوخس بصغر القائد العظيم بجوالى عشر سنوات ،
ولكنه كان رجلاً حاد الذكاء ، سريع البت في الأمور . وكان
قد تلقى إنذاراً نهائياً من روما تحذره فيه من أن يطأ أرض أوربا
بقدميه وذلك على أثر استيلائه على بعض المدن اليونانية في آسيا
الصغرى ، وبرغم غضب انتيوخس فقد قرر الاستجابة للإنذار ..

فلما أفضى هانيبال إليه بخطته فطن إلى ما فيها من مزايا ،
وفطن أيضاً إلى نتائجها : كان معناها شن حرب كبرى ضد روما ؛
حرب لم يكن راغباً فيها أو مستعداً لها .

سأله هانيبال : هل سبق أن خطر ببالك مامنى أن تصبح
عدواً لروما ؟

وابتسم الملك انسورى ساخراً . . كان يعتقد أن البرابرة لن
يستطيعوا الوصول إلى مملكته ، ثم أنه لم يكن يطمع فى شيء
أكثر من أن يصبح سيداً على شواطئ اليونان الشرقية لأنه هو
نفسه كان يونانياً

ومع أنه أقر خطة هانيبال إلا أنه تعمد التراخى فى الاستعداد
لها . صحيح أن أسطول البحرى كان عظيماً برأسه بطل كبير هو
بولكسينيداس على حين كان الأسطول الرومانى ضعيفاً بعد أن

سرح ملاحوه على أثر إبرام الصلح مع قرطاجنة .
وكلما مرت الشهور بغير أن يتم إعداد الحملة ازداد هانيبال
غضباً وسخطاً .

وفي تلك الأثناء جاءت أنباء مشجعة : لقد أنزل الأميرال
بولكسينيداس عقاباً شديداً بأسطول رودس المعادي بغير أن
يتحرك الجيش والأسطولان الرومانيان .

ولكن هانيبال كان يوجس خيفة من صمت الرومان .
وبالأخص عندما أبلغه تجار زيت الزيتون القادمين من صقلية
أن سفناً حربية جديدة كانت تجيء من تارنتم وكروتونا - اللتين
أصبحتا الآن حليفين لروما - وذلك لتقوية الأساطيل التي تحرس
صقلية (حيث كان هانيبال يعتزم الهجوم) وأن فرقاً جديدة من المشاة
كانت تحرس السواحل المحيطة بمسينا . ومعنى ذلك أن الرومان
بدأوا يستعدون لآية حركة يأتيها هانيبال نحو ميدان معاركه السابقة .

ووراء هذا الستار من الصمت والجمود ، كانت قوات العدو
تتجمع . وكلما مر شهر حصل الرومان على مزيد من السلاح
من أيدي الأسبان .

وتخلى هانيبال نهائياً عن حملته على إيطاليا ، ولو أنه كان لا يزال

هناك وقت لتولى القيادة في البحر الشرقى في مياه بحر إيجه بعيداً عن ساحل أيونيان الهام . .

وفي ديلوس على بحر إيجه ظهر سبيو فجأة بدعوى أنه جاء في رحلة للترفيه . . وحذر هانيبال أنتيوخس - بناء على تجاربه السابقة - من أنه من العبث إرسال جيش إلى اليونان ما لم يكن لاسطوله السيطرة على اليونان

فقال أنتيوخس معترضاً : لم ير أحد أكثر من سفينتين هناك فكيف أطرده أسطولاً لا وجود له ؟

وكان الملك قد ضاق ذرعاً بالحاح هانيبال عليه في الإسراع .. وعلاوة على ذلك فقد بعثت روما حينذاك بوفد يحذر أنتيوخس من الإقدام على أية خطوة معادية ، فاستدعى الملك مستشاريه .

وقرر المستشارون ضرورة تولى الملك نفسه قيادة الجيش ، وقبل هانيبال أن يكون مستشاراً للحملة .

كارثة في ثرموبلاي :

وعبرت الحملة الآسيوية بحر إيجه إلى ميناء الصديق ديمترياس

قبل أن تهب عواصف خريف عام ١٩٢ . . وكان الأسطول كبيراً إلى درجة كافية ، ولكن عدد رجال الحملة لم يزد على ١٠٠٠ رجل و ٥٠٠ فارس و ٦ فيلة . أما في اليونان فكان فلامينوس مبعوث روما قد حصل على عهد من فيليب بأن يلزم الجمود ، أما الأسبرطيون الذين كانوا قد تمردوا عندما سمعوا بمجيء انتيوخس فقد سحقت ثورتهم ، ومن ثم لم ينضم إلى انتيوخس غير الاتيوليانيين وكان عددهم حوالي ٤٠٠٠ رجل ، ومن ثم فإن جيش انتيوخس لم يكن كبيراً بالدرجة التي تمكنه من شن حرب على نطاق واسع

وفي إيطاليا أحرق القواد آخر مدينة لليجوريين ، وأرغموا البوى على الاستسلام ، بينما سحق الرومان الثورة في أسبانيا حتى نهر التاج . وعندما انتهى فصل الشتاء استبطنوا إنزال جيش على الساحل الغربي لليونان بدون مقاومة

واختار هانيبال معبراً ضيقاً للدفاع ضد الطواير الرومانية القوية . وكان المعبر واقعاً بين أحراش تمتد إلى الشاطئ والتلال المنخفضة ، ويطلق عليه ثرموبلاي . وأنشأ اليونانيون السوربون استحكامات للدفاع عبر قاعدة المعبر ، بينما تولى حلفاؤهم حراسة الطرق على التلال العلوية .

وقام الجيش الروماني بفحص المعبد ، ثم هاجمته بعض الفرق
بينما تساقط طوابير أخرى التلال لاقتحام خط الدفاع ولم تكذب
تنقضي ساعات قلائل حتى انتهى كل شيء ، وراح الفرسان الرومان
يطاردون فلول السوريين حتى لا يتشكلون مرة أخرى .

وركب انتيوخس سفينة ومعه حوالي ٥٠٠ تابع وابحر إلى
افسوس . .

اثارت معركة ترموبلاي هياجاً قليلاً في روما . ولكن مجلس
الشيوخ قرر ، بعد أن استتب الأمر لروما في أوربا ، أن يؤدب
انتيوخس . وانضم سيپوللحملة الجديدة بوصفه مديراً للعمليات .
وفي العجيب أن هانيبال كان السبب في استدعاء سيپول للخدمة
من جديد .

واراد انتيوخس أن ينسى مأساة ترموبلاي عندما عاد إلى
افسوس ، وظن إنه أصبح في أمان بداخل جدران قصره المنيف
وفي حدائقه الغناء .

واكد المستشارون لانتيوخس أن البحر كفيلاً بإعاقة أعدائه
عن المجيء وأن الرومان لن يستطيعوا أن ينقلوا جيشاً كبيراً
عبر البحر . .

وسمع هانيبال هذا الحديث ، فلم يؤمن على أقوال المستشارين
وقال : أن ما يدعشني أن الرومان لم يصلوا إلى آسيا حتى الآن ..
وصمت هانيبال لحظة . ثم ألقى القنبلة التالية ، وكانت مستقاة
من المعلومات التي وصلت إليه :

إن أسطول الرومان يتجمع في ماليا منذ أمد طويل ، بعد
أن وصلت إليها سفن جديدة وتولى أمرها قائد جديد.

وأقلق ذلك بالانتيوخس ، وسأل هانيبال أن كان يحبذ الدخول مع
الرومان في مفاوضات للصلح ، فقال هانيبال الآجدوى من ذلك
الآن ، وأن هناك وسيلة واحدة لتأمين سلامة مملكة انتيوخس ،
وتلك هي الخاق الهزيمة بالرومان في البحر ..

ولأول مرة أخذ انتيوخس بنصيحة الرجل الذي كان يعرف
أحسن من غيره كيف يشن الرومان حرباً . فأمر حطائر بناء
سفن أثقل وأكثر ارتفاعاً ، ثم رحل شمالاً لتعزيز استحکامات
الشاطئ "الاسيوى" عند البسفور ، بينما رحل هانيبال جنوباً لحشد
أسطول في تايير .

إلا أن الأمل في النجاح البحري لم يابث أن خبا في مدى
شهور قليلة ، لأن أساطيل الرومان البحرية مالبثت أن خرجت

إلى عرض البحر ، وانضمت إليها أساطيل رودس وبرجامم التي
الحقت هزيمة كبيرة بأسطول أنتيوخس من السفن الخفيفة .
وحاصرت الأسطول السوري الرئيسي في طرقات إفسوس .
وأخطر من ذلك أن سديو كان يزحف بقوات المشاة الرومانيين
من اليونان إلى الدردنيل . ومع أن المعبر المائي هناك ضيق ،
إلا أنه كان يستلزم وجود سفن لنقل الجنود وأخرى للحراسة . .
وفي تاير ، قرر هانيبال أنه لا يستطيع الانتظار أطول مما فعل .

فقد بقيت فرصة أخيرة ، وتلك أن يجمع السفن في ناير وطرسوس
ويقودها شمالاً إلى إفسوس لينضم إلى السفن الباقية من أسطول
أنتيوخس ويهاجم الجميع أسطول الحصار الروماني ، فإذا أمكن
تدمير هذا الأسطول ، فقد يتمكن السوريون من الوصول إلى
المضائق قبل سديو وبذلك يحولون دون عبور جيش الرومان
إلى آسيا .

معركة بحرية :

سار هانيبال بالأسطول البحري شمالاً ، وكان قد صحب معه
عدداً من ملاحى تاير المهرة ليوجهوه . وبعد أن مر الأسطول
بتلال رودس ، دخل المياه المعادية واستعد للعمل بانزال أشرعته .

وفي اليوم التالي التقى أسطول هانيبال بأسطول رودس خفف
الملاقاته .

وراح هانيبال يراقب المعركة التي بدأت تدور بين الأسطولين
بغير أن يعرف ماهي النتيجة التي ستسفر عنها .

واستطاع أسطول هانيبال أن يحدث ثغرة في خط هجوم
أسطول رودس . . ولكن ما أن انقضت ساعتان حتى بدأ اتجاه
المعركة يتحول في مصلحة الأعداء .

ولاحظ هانيبال أنه ليس بين الأسطول المعادي سفينة واحدة
رومانية ، . وأن أسطول رودس كان يمتاز بخفة الحركة ومهارة
ملاحيه . . .

وبعد ساعتين آخرين قال مرشدو هانيبال : يحسن أن تصدر
الأمر بالانسحاب . .

وأوماً هانيبال برأسه دلالة على الموافقة .

فإذا جاء المساء تحول أسطول العدو مبتعداً بعد أن أنزل
الهزيمة بأسطول أنتيوخس .

وفي أيدوس سمع أنتيوخس بضياع أسطوله، فتخلى عن تعزيز

استحكامات الدرونيل ، إذ كان يعلم أن من العبث أن يبقى هناك
في انتظار مجيء سبيو، الرهيب تؤيده الأساطيل الرومانية الهائلة .
وهكذا عبر سبيو الدردنيل بفرقة بغير أن يلقى أية مقاومة .
ولأول مرة دخل الجيش الروماني آسيا . . وأخذ يتحرك
بطء إلى الجنوب ماراً باطلال طروادة . . . وكان سلوك سبيو
يتسم بالغرابة في هذه الأثناء .

انتصار سبيو وسقوطه :-

برغم أن سبيو كان مستشاراً للحملة ، إلا أن حياته كانت
تحمل - في نهايتها - نفس طابع حياة هانيبال . . فمع أن سبيو كان
شديد الطموح في شبابه ، إلا أنه تخلى عن هذا الطموح في المراحل
الآخرة من حياته .

كان سبيو يعتقد أن دخول الرومان إلى الشرق يجب أن يستهدف
غاية واحدة هي المحافظة على الثقافة اليونانية .

فعندما عبر البسفور حرص على أن يقنع ملوك فارس واليونانية
بالتزام الحياد . . ولعل سبيو كان متأثراً في كل تصرفاته بفكرة
واحدة ، تلك أن يحقق لروما لقب « حامية الثقافة الإغريقية » .
لا الدولة الفاتحة الغازية .

ولهذا عمد إلى إعادة ابن أنتيوخس - وكان قد سقط أسيراً
في المعركة البحرية - إلى أبيه بلا فدية .

ومع ذلك فإنه أى سديو لم يتخل عن مهمته كقائد في حرب تشنهاروما
وبينما كان سديو يزحف بجيشه شرقاً، بعث أنتيوخس بشروط
الصلح التى وضعها : تسليم آسيا الصغرى كلها حتى جبال طوروس
ودفع تكاليف الحرب .

ونصح هانيبال الملك أنتيوخس بقبول هذه الشروط .

ولكن الملك الشرقى المعز بكبريائه رفض ذلك . . وعندما
بدأ يتراجع جنوباً راح يجمع المكوس فى آسيا توطئة لمواجهة الرومان
وهذا بعث سديو برسالة أثارت جدلاً كثيراً فيما بعد. حث أنتيوخس
ألا يشتبك فى القتال بأى حال من الأحوال إلا فى وجوده
- أى سديو .

ولم يعرف أحد حتى الآن ما الذى كان سديو يهدف إليه من
هذه الرسالة الغريبة . . أما ما حدث فعلاً فهو أن سديو أصيب
بالمرض واضطر إلى التخلف عن الجيش .

وتولى مساعدته إدارة دفعة المعركة التى دارت رحاها بعد
ذلك ، ودارت الدائرة فيها على جيش أنتيوخس . .

وعلى أثر انتهاء المعركة ، كان هانيبال ، كسيو ، بعيدان عن ميدانها . .

وهكذا انتهت الحرب . .

ورأى مجلس شيوخ روما أن الشروط التي عرضها سيو على أنتيوخس - مخففة جداً . ومن ثم أضاف إليها شروطاً أخرى هي دفع غرامة قدرها ١٥٠٠٠ طن من الفضة ، وتسليم فرقة الفيلة مع التعهد بعدم شن أية حرب على الجبهة الغربية في المستقبل بغير الحصول على موافقة مجلس الشيوخ ، كذا تسليم هانيبال . . . وفي عام ١٨٨ وافق أنتيوخس على هذه الشروط ، فانسحب من ساحل البحر الأبيض .

وحدث في هذه الأثناء خلاف خطير بين سيو ومجلس الشيوخ ، أدى إلى انسحاب هذا البطل من الحياة العامة ، واعتكافه فيما يشبه المنفى الاختياري .

وعندما ذهب الوفد الروماني لاحضار هانيبال بعد إبرام الصلح مع أنتيوخس ، لم يجد له أثراً في تاير ولا في افسوس . . . فقد اختفى فجأة ليظهر في جزيرة يحكمها القراصنة ، فذهب الوفد إلى هذه الجزيرة .

نهاية البطل :

كان يذغى أن تكون جزيرة كريت ملاذا آمناً لهانيبال لأنها بعيدة عن ميادين الخلاف والنزاع . .

وقد ذهب هانيبال إلى هذه الجزيرة ، واعتكف في واد تحف به أشجار الزيتون حيث شيد عددا من المنازل حول معبد في جور تانيا ولم يحاول هانيبال أن يخفي شخصيته برغم أنه كان يستطيع ذلك ، ولعله كان يسعى إلى مكان ناء منعزل يفكر فيه ، فيما سيفعله بعد ذلك .

وكان أهل جور تانيا يذكرون هانيبال جيداً . . ولهذا رحبوا به واحسنوا معاملته . .

وقد وجد هانيبال كثيرين من الأسرى الرومان الذين باعهم لتجار الرقيق بعد معركة كاناي وكانوا يفلحون الأرض وهم مستسلمون لمصيرهم .

وقد حدث إن أسطول الرومان بدأ جولة تفتيشية على موانئ السواحل ، وجاءت سفينة من الأسطول إلى شواطئ كريت . وبما كان قائدها يطالب برد الأسرى الرومان الموجودين بالجزيرة

أفضى اليه بعض الطامعين في الثروة التي أحضرها هانيبال معه ،
بوجود القائد القرطاجي في مدينة جور تانيا . .

وشعر هانيبال بالخطر فاخفى مرة أخرى . .

ترك هانيبال جزيرة كريت ، وانطلق هذه المرة إلى الشرق
البعيد عبر المضائق إلى جزيرة مرمرة بعيداً عن مجال المشاة
الرومان والأسطول الروماني .

وأقام هانيبال في منزل كبير بقرية ليبايسا ، وهي قرية يسكنها
الصيادون ويوجد بها جبل أوليمبوس . .

وكان هانيبال يتجول بجواده في السهول المحيطة بالقرية ، ويقضي
معظم وقته في القراءة .

كان بحر مرمرة من البحار ذات الأهمية في التاريخ القديم
نظراً لموقعه الجغرافي . . وكان الرومان يفكرون فمن ذلك الحين
في تقديم يد المساعدة لعميلهم ملك برجامم عبر الجبال نظراً لأنه
كان على خلاف دائم مع فارس . .

وأعد هانيبال كماداته الوسيطة السرية التي تكفل له الهرب
عند الضرورة . .

كان منزله كبيراً ولكنه يكاد يكون مجرداً من وسائل الراحة
وبه ستة أبواب ..

ولأول مرة لم يبذل هانيبال أية محاولة لمعرفة الأحداث التي
تدور في العالم الفسيح ، وفيما عدا الخدم الذين كانوا يتولون
العناية بشئونه ، لم يستقبل هانيبال أى زائرين .

وكنتم ملك الجزيرة سر هانيبال ، إلا أنه جاء وقت استدعى
فيه مندوبو الجزيرة إلى روما لايضاح سبب خلافهم مع برجامم
التي أصبحت صديقة لروما حينذاك .. وأثناء المناقشة التي دارت
بين الفريقين ؛ ذكر أحد أعضاء الوفد اسم هانيبال عفواً .

ونقل فلامنيوس النبأ إلى مجلس الشيوخ للمناقشة فيه ..
وراح الأعضاء يتساءلون عن سبب وجود هانيبال في بتيانيا ؟
لقد كانت شروط الصلح التي أبرمت مع أنتيوخس تلزم هذا
الملك بتسليم هانيبال ..

وبعد مناقشة الموضوع عهد مجلس الشيوخ إلى فلامنيوس
بالمطالبة بتسليم هانيبال له ..

وعند ما عاد الوفد إلى وطنه صحبه فلامنيوس مع بعض
حرسه . وعلى أثر نزولهم إلى البر في نيكوميديا ذهبوا مباشرة

لمقابلة الملك بروسياس الذى كان قد استدعى خدمه وحرسه على
عجل للترحيب بزيارته القادم من روما ..

ورفض بروسياس تسليم هانيبال ، لأنه لا جىء لاذ به ..
ولم يستطع فلا مينوس أن يقنع بروسياس بتسليم هانيبال ..
وقال الملك : إذا أردت أن تأخذ هانيبال ، فعليك أن تفعل
ذلك بنفسك ..

وعلى أثر انصراف فلا مينوس ، بعث بروسياس ببعض
حراسه المساحين لحراسة جميع مداخل المنزل الذى يقيم
هانيبال فيه .

وهناك رآهم أحد الخدم فابغ هانيبال أن رجلا بجهواين
مسلحين يقفون خارج أبواب المنزل . فذهب هانيبال إلى الباب
الرئيسى ، وفى التو عرف أن هؤلاء الرجال من الحراس .
وعاد هانيبال إلى غرفة المائدة بعد أن عرف أنه أصبح محاصراً
وطالب من الخدم أن يحيثوه بقدر من الخبز ..

وقال لنفسه : لقد حان الوقت لانقاذ الرومان من مصدر
القلق الكبير الذى ظل يقض مضاجعهم سنوات طويلة ..

ومع الخمر ، شرب هانيبال السم الذي ظل يحتفظ به خلال السنوات الأخيرة .

وهكذا مات هانيبال في عام ١٨٣ .

وفي السنة نفسها مات القائد سييو بعد أن أعطى أمراً بأن يطفن خارج الأراضى الرومانية ..

وفي هذا كتب المؤرخ ليفي : وهكذا لم يكن سييو على نفسه بالثقي في الحياة فقط وأنا أيضاً في الموت ! .

كتب ثقافية

صدر من هذه المجموعة

رقم الكتاب	اسم الكتاب	رقم الكتاب	اسم الكتاب
١ -	حكايات جحا	١٣ -	في المقهى (وقصص جزائرية)
٢ -	أحاديث جدتي	١٤ -	سحابة صيف
٣ -	وشم الورد	١٥ -	طبيب البيت
٤ -	كليلة ودمنة	١٦ -	شهر العسل المرح ١
٥ -	يحكى أن وقصص أخرى	١٧ -	شهر العسل المرح ٢
٦ -	قصص من الشرق والغرب	١٨ -	نزوات ماريان
٧ -	الفتوة	١٩ -	نهج البلاغة ج ١
٨ -	فلاسفة وجواديون	٢٠ -	نهج البلاغة ج ٢
٩ -	أبنائي جميعاً	٢١ -	نهج البلاغة ج ٣
١٠ -	المحاسن والاضداد ج ١	٢٢ -	الصواريخ والأقمار وغزو الكون
١١ -	المحاسن والاضداد ج ٢		
١٢ -	مذاهب النقد الأدبي		

رقم
الكتاب

اسم الكتاب

٢٣ - تليفزيون للجميع

٢٤ - هنري الرابع

٢٥ - العالم المفقود

٢٦ - رحلة إل القمر

٢٧ - طبائع الاستبداد

٢٨ - هكذا عشنا

٢٩ - عبقرية محمد ج ١

٣٠ - عبقرية محمد ج ٢

٣١ - من قصص شكسبير

٣٢ - ابن بطوطة ج ١

٣٣ - ابن بطوطة ج ٢

٣٤ - عبقرية الصديق

٣٥ - صور ضاحكة من نوادر البخلاء

٣٦ - العلم والتوكل (صور من علوم

أحياء الدين

رقم
الكتاب

اسم الكتاب

٣٧ - دروس في الحياة الزوجية

٣٨ - الزهاوي شاعر الحرية

٣٩ - محمد الرسول ج ١

٤٠ - محمد الرسول ج ٢

٤١ - أبو الشهداء «الحسين بن علي»

٤٢ - صور من الأدب الآسيوي

٤٣ - محنة الفكر في العراق

٤٤ - أعلام المسرح الأوروبي

٤٥ - في ركب الكفاح

٤٦ - حقائق أعجب من الخيال

٤٧ - الحاج عباس وشركاه

٤٨ - الإمامة والسياسة ج ١

٤٩ - الإمامة والسياسة ج ٢

٥٠ - الحركة الرو

٥١ - روميو وجوليت

٥٢ - اليونان أرض الفكر والتاريخ

رقم الكتاب	اسم الكتاب	رقم الكتاب	اسم الكتاب
٥٣ -	الشخصية العربية في الأدب والتاريخ	٥٩ -	شعراء الحب
٥٤ -	يرانديللو	٦٠ -	الانسان العربي
٥٥ -	الحياة في عهد الفراعنة	٦١ -	جاء الخريف
٥٦ -	الحاجة إلى الموت	٦٢ -	إبراهيم الكاتب
٥٧ -	أثر الترجمة في حضارة العرب	٦٣ -	علاؤنا العرب
٥٨ -	معارك عربية	٦٤ -	الشاعر أبو تمام

الدار القومية
للطباعة والنشر
شركة ذات مسؤولية محدودة

هيئة قناة السويس

ماذا حدث عندما أغلقت القناة

١٦٥ يوماً فقط

تسبب إغلاق قناة السويس أيام العدوان الثلاثي لمدة ١٦٥ يوماً في الأضرار الآنية للدول الغربية :

تحويل ٥٥ مليون طن بضائع عن مجراها الطبيعي، إما بعدم نقلها مطلقاً من مكان إنتاجها إلى مكان استهلاكها، أو بتأخير وصولها إلى مستورديها. شح البترول ومشتقاته في دول غرب أوروبا حتى اضطرت بعض البلاد إلى فرض قيود على توزيعه للأغراض الإنتاجية والاستهلاكية ووزعته بعض الدول بالكوبونات .

انخفضت احتياطات كثير من الدول من الذهب والعملية الصعبة بسبب شراء البترول الأمريكي، بدلاً من بترول الشرق الأوسط ارتفعت أسعار السلع بسبب تعطل شحنات الخامات والمواد الأولية المستوردة من الشرق، فقد سجل معظم أنواعها نقصاً كبيراً عما كان عليه من قبل . كانت نسبة النقص في القطن ٥٠٪ / والمطاط ٤٥٪ / والصوف ٤٥٪ / والجلود ٣٨٪ / والأسمنت ٥٢٪ / ارتفعت نفقات المعيشة في أغلب بلاد أوروبا .

تأثرت أسعار الأوراق المالية ولولا استئناف الملاحة بالقناة بعد ٥ أشهر لتحولت الأزمة الأوروبية إلى كارثة اقتصادية عالمية .

روايات عالمية

تقدم يوم السبت القادم

١٧ ديسمبر سنة ١٩٦٠

حب المسقة

للكاتب الانجليزى الكبير

رفاييل ساباتيني

الثمان ٥ قروش

الكتاب ٧٨

صدر يوم الخميس ١٥ ديسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٦٠